عبد الوهاب مطاوع



يوميات طالب بعثة

عبد الوهاب مطاوع

يوميات طالب بعثة

زهور الفكر

الغلاف بريشة الفنان : فرج حسن
خطوط : محمد المغربى

إنى أتبع أفكارى أينما قادتنى !

الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت

(١٥٩٦ - ١٦٥٠)

سأل المرحوم صالح جودت . . الأستاذ العقاد يوما : ماذا تقرأ الآن يا أستاذنا ؟ فأجاب العقاد : أقرأ كتابا عن بريجيت باردو[*]! ... فرد صالح جودت مندهشا : الأستاذ العقاد يقرأ عن بريجيت باردو ؟

فقال العقاد : نعم . . فليس هناك كتاب أقرأه ولا أستفيد منه شيئا جديدا فحتى الكتاب التافه أستفيد من قراءته ، أنى تعلمت شيئا جديدا هو ما هى التفاهة ؟ وكيف يكتب الكتاب التافهون ؟ وفيم يفكرون ؟

ولأنه ليس هناك كتاب مهما بلغت تفاهته لا يستفيد منه القارىء الذكى فإنى أدعوك لأن تقرأ هذه المذكرات لعلك تجد فيها شيئا مفيدا فإن لم تجد فشيئا ممتعا . . فأن لم تجد . . فشيئا أفضل قليلا من ملل الفراغ والضياع . . فإن لم تجد شيئا من كل ذلك . . تعلمت منه الدرس الذى يتعلمه كاتب كالعقاد من قراءة الكتاب التافه ، وهو معنى التفاهة ! بشرط واحد هو أن تكون قارئا ذكيا ، فالقارىء الغبى قد يقرأ الكتاب القيم فلا يستفيد منه شيئا أما القارىء الذكى من طراز العقاد ، فهو وحده الذى يستطيع أن يجد فى اكثر الكتب تفاهة ، شيئا أو معنى يستحق من أجله عناء قراءته !

(*) ممثلة فرنسية كانت مشهورة فى الستينات .

إلى لندن

كنت فى ذلك الحين أصدر صفحة أسبوعية فى جريدة الأهرام بعنوان « الوجه الآخر » أكتب فيها عمودا قصيرا أعبر فيه عن نفسى إلى حد ما ، وأحس بتجاوب عدد محدود من القراء مع ما أكتبه فيه حين وقع على إختيار مدير تحرير الأهرام الراحل المرحوم محمود عبد العزيز لألتحق بدراسة قصيرة للصحافة فى معهد طومسون بويلز ببريطانيا ، قال لى محمود عبد العزيز إن هذه الدورة بالذات مخصصة للصحفيين العرب وحدهم لذلك فإن تجربتك فى هذه الدراسة ستكون فى التعامل مع صحفيين من العرب على خلاف كل الدورات السابقة للمعهد التى كانت تضم صحفيين من كل دول العالم الثالث من إستراليا وأمريكا الجنوبية وأسيا وأفريقيا . .

قلت لنفسى : لا بأس أنها فرصة للدراسة ولمعايشة الحياة فى بريطانيا لعدة شهور متصلة على خلاف الرحلات القصيرة السريعة التى قمت بها من قبل لبعض دول أوربا . وقال لى المرحوم محمود عبد العزيز : إستعد وحاول أن تسترجع لغتك الإنجليزية وتنفض عنها تراب قلة الاستعمال ، وستسافر يوم ٢٨ [1] ابريل ، وخذ هذا الكتاب عن بريطانيا واقرأه قبل السفر . فأخذت الكتاب وانصرفت ، وخلال فترة انتظار السفر كنت قد قرأت الكتاب السنوى عن بريطانيا ٧٧ الذى يحتوى على معلومات عامة

(١) ٢٨ ابريل ١٩٧٧ .

عن بريطانيا إبتداء من نظام الحكم إلى النشاط الإقتصادى إلى أسماء الوزراء إلى النشاط الصحفى إلى أسماء الصحف والمؤسسات الكبرى . . الخ .

وكنت أيضا قد قرأت ملف بريطانيا فى أرشيف الأهرام كعادتى قبل السفر إلى أية دولة . ولست طبعا فى ذكاء الدكتور سيد أبو النجا الذى يحتفظ بعناوين وصور كل من قابلهم فى أية دولة زارها ، فإذا سافر إلى نفس الدولة بعد عشرين سنة استخرج هذه العناوين[1] والصور واصطحبها معه لعلها تفيده فى تجديد معرفته بالأشخاص الذين قابلهم من قبل .

ولن تفهم معنى الحاجة إلى أن تتعرف إلى الناس وإلى أن تدعى للجلوس معهم إلا إذا سافرت إلى الخارج وبالذات إلى أوربا وأمريكا . لأن كل إنسان هناك مشغول بنفسه ، وليس مستعداً غالبا لأن يضيع وقته فى التعرف على الغرباء ، ولأنها تجربة قاسية أن تجد نفسك وحدك بعيدا عن أصدقائك وأسرتك ومعارفك وسط ناس مشغولين عنك وليسوا على استعداد لتبادل الكلام معك . من هنا تأتى أهمية هذه التذكارات البسيطة فى أنها تجدد الصداقات وتفتح الباب للكلام مجرد الكلام مع الآخرين .

قالت لى موظفة قسم التمويل بجريدة الأهرام التى تشرف على استخراج تذاكر الطيران وصرف بدل السفر : ستسافر على الخطوط

(١) من كتاب « ذكريات عارية » تأليف الدكتور سيد أبو النجا .

الجوية الإيطالية عبر روما ، لم أجد تذكرة فى الموعد الذى طلبته إلى لندن مباشرة على الخطوط البريطانية ، لذلك فإن عليك أن تستبدل الطائرة فى روما وتسطيع عند العودة أن تتخلف فى روما لعدة أيام .

صباح يوم ٢٨ ابريل . . كعادتى ليلة السفر لم تغمض عيناى لحظة واحدة عند الفجر نهضت وقبلت طفلى الذى لم يكن قد أكمل عامين من عمره بعد وودعت أسرتى وحملت حقيبتى الوحيدة وذهبت إلى المطار ، أحساس غريب من البهجة والسعادة يتولانى كلما دخلت المطار خصوصا فى الصباح الباكر لأركب الطائرة لأسافر إلى الخارج . أعتقد أن أكثر متعة السفر عندى هى فى هذه اللحظات لحظات وزن الحقيبة وختم جواز السفر ثم دخول الدائرة الجمركية انتظارا لموعد السفر ، وفنجان القهوة على البار فى الكافتيريا وقراءة الجريدة الصباحية .

إشتريت خرطوشة سجائر ، ورحت أتجول فى صالة المطار ، ثم فجأة التقيت بصديق قديم . . أهلا سعد ، أهلا عبد الوهاب ، إلى أين ؟ لندن . . وأنت ؟ أثينا . . عمل لشركة القطاع العام التى تعمل بها ؟ شركة ايه . . لقد استقلت منها من زمان الآن أعمل بالاستيراد والتصدير وأكسب ألوف الجنيهات كل شهر ، الوظيفة تعطينى ٨٠ جنيها ، تسامرنا قليلا ومر الوقت سريعا ثم نودى على ركاب الطائرة فودعت صديقى واتجهت إلى باب الخروج ، فى الطابور كانت تقف أمامى فتاة أوربية شكلها الافت للنظر شعرها قصير جدا وترتدى قميصا رجاليا وشكلها رقيق وأن كان يقترب كثيرا من شكل الولد الشقى .

تسلم موظف شركة الطيران الإيطالية وهو مصرى ثقيل الدم جواز سفر الولد الشقى وطلب فتح حقيبتها تنفيذا لإجراءات الأمن ، ثم أعطاها الجواز ، وتحركت الفتاة فى طريقها إلى السيارة وفجأة خطر على باله أن يوجه لها أسخف سؤال يمكن أن يوجهه إنسان إلى فتاة : فقال لها وهو يبتسم ابتسامة سمجة كأنه تذكر سؤالا هاما نسى أن يوجهه لها : هيه . . آر يو أى بوى ؟ أور أى جيرل ؟ أى هل أنت ولد أم بنت ؟ لو أردت أن تعرف فى لحظات الفرق بين الحضارة والهمجية تستطيع أن تعرفه بسرعة وأنت ترقب هذا المشهد السخيف فقد أحمر وجه الفتاة وأحست بغضب هائل ، لكنها لم تفعل أكثر من أنها لم تجب على هذا التساؤل السخيف وتوجهت إلى السيارة التى تحمل الركاب إلى الطائرة . وحين جاء دورى أمامه ، كنت أحمل له بلا سابق معرفة كل كراهية الدنيا للإيلام العنيف الذى تسبب فيه بغير أن يدرى لهذه الفتاة .

أمسك بجواز سفرى وعرف أنى صحفى بالأهرام، فعاد يبتسم ابتسامته السمجة وقال لى : كيف فلان ؟« زميل يعمل معى فى الأهرام » قلت له اللّه يسلمك وهممت بأن أفتح حقيبتى« السمسونيت » ليفتشها كما تقضى التعليمات ، لكنه أوقف حركتى بأشارة من يده وقال لى تفضل ، وقبل أن أغادره صاح : أرجو أن تبلغه تحياتى . . فهززت رأسى وانصرفت .

وأنا أسير إلى الأتوبيس الذى يحملنا للطائرة كنت أقول فى نفسى : كيف أبلغه تحياتك . وها أنت ترانى مسافرا ولن أعود قبل عدة شهور . ثم

إنك جاملتنى فلم تؤد واجبك معى فى تفتيش الحقيبة ، أفلا يجوز أن تكون فى حقيبتى متفجرات ؟ إننى لو كنت مديرا لهذه الشركة وشاهدت تصرف هذا الموظف مع الراكبة أولا ثم معى ثانيا لقلت له على الفور : يو آر فايرد ، يعنى بالعربية كده أنت مفصول . لكنه نموذج موجود ومنتشر فى مواقع كثيرة ولن تصدق أنى حين ركبت الأوتوبيس الذى سيحملنى إلى الطائرة وجدت الفتاة الأوربية جالسة فى غاية الحزن والأكتئاب بسبب السؤال السخيف الذى جرح كرامتها كأنثى فكدت أقول لها بلا سابق معرفة متأسف لكنى لم اتكلم وأكتفيت بالرثاء لها من بعيد .

دخلت الطائرة من باب المقدمة فمررت فى طريقى إلى مقعدى بوزير الثقافة وقتها جالسا فى أول صف وغارقا فى نوم هادىء ، لو كان مستيقظا لقلت له : «هالو» لأنى أعرفه فلقد كان نقيبا للصحفيين لكنه كان غارقا فى النوم ، وعلى فكرة النوم فى الطائرة أن كنت لا تعرف من علامات الوجاهة ! تتساءل كيف ؟ اقول لك أن النوم فى الطائرة يعنى إنك معتاد على السفر بالطائرات و إنك مسئول كبير مشغول بجلائل الأعمال لدرجة إنك تعتبر رحلة الطائرة أجازة قصيرة من المتاعب تنتهى بنزول الطائرة فى المطار وخروجك لممارسة جلائل الأعمال مرة أخرى لذلك فأنت تستغلها فى إراحة جسمك وعقلك بعيدا عن المسئوليات الجسام وهكذا يصبح النوم فى الطائرة من علامات الوجاهة تماما كما كان «الباسبور المقطع» علامة من علامات الوجاهة والنفوذ ، تتساءل مرة أخرى كيف ؟ أشرح لك : لأنه فى الوقت الذى كان السفر فيه إلى الخارج مقيدا وصداقة ضابط

بالجوازات تعد مفخرة وشرفا كان المعتاد ألا يسافر إلى الخارج إلا أصحاب النفوذ وأهل الثقة ، وبالتالى فحصولك على جواز سفر أصلا فضلا عن جواز مشحون بتأشيرات الخروج والدخول ومشغولة كل صفحاته وشكله مبهدل من كثرة الاستعمال ، كان يعنى عند إخراجه فى النادى أو وسط شلة من الأصدقاء أنك رجل مهم و« واصل » تسمح لك الدولة بالسفر إلى الخارج كثيرا ، ولأن الدنيا تتطور فلم يعد الجواز المبهدل من علامات النفوذ بدليل أنك تستطيع أن تراه الآن فى يد الأسطى حسنين نجار المسلح وعلى كبشة عامل البلاط ، بغير أن تحس بأى تهيب تجاهها . . وأن كان من المحتمل بالطبع أن كنت مثقفا محدود الدخل والموارد أن تحس بشىء من الهوان !

على مقعدى فى الطائرة أصغيت بقلب سعيد لصوت المضيفة التى تطلب ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين ! ثم تحركت الطائرة . لا أذكر مرة ركبت فيها الطائرة ولم ينخلع قلبى قليلا لحظة اقلاعها وبالذات فى اللحظة التى تفارق فيها عجلات الطائرة أرض الممر وأعتقد أنى لست وحدى فى هذا الاحساس ، كذلك يندر أن أركب الطائرة ولا أتذكر صديقى سعد . . الصحفى المقيم فى باريس الآن . فقد سافرت معه مرة فى وفد يمثل نقابة الصحفيين إلى رومانيا قبيل زيارة شاوشيسكو لمصر سنة ٧٢ ردا لزيارة وفد صحفى رومانى جاء إلى مصر قبلها . وركبنا طائرة الخطوط الرومانية وكانت وقتها طائرة متواضعة تعمل بالمراوح فكانت فريسة سهلة طوال الرحلة للمطبات الهوائية ، وكثر خلالها إعلان حالة نطوارىء

وإضاءة لوحة ممنوع التدخين و   سعد مزيج غريب من الجرأة والجسارة . . والخوف ! ! فقد   ـها فى قضية قنابل سينما مترو سنة ١٩٤٦ واشترك فى عمليات اغتيا   عديدة لجنود بريطانيين خلال معركة الكفاح ضد الاحتلال الإنجليزى واشترك فى بعض عمليات المقاومة الفلسطينية فى الأردن سنة ٦٨ ، ٦٩ ، ومع كل ذلك فهو أكثر الناس خوفا من ركوب الطائرات ! ولاتسألنى كيف أو لماذا فهذه هى الحقيقة ولا تفسير لها لدى إلا أنه الإنسان الذى قال عنه شكسبير على لسان« هاملت »ما أعظم الأنسان . . ما أغربه ! وصدق هاملت. . اذ مثلا كيف يرتجف إنسان جرىء جرأة شيطان كسعد حين تهتز الطائرة فيتمتم بآيات القرآن الكريم طوال الرحلة ويصفر وجهه وترتطم أسنانه من الرعب كلما أضيئت لوحة ممنوع التدخين وربط الأحزمة ! المهم . . تناولت إفطار الطائرة الدسم ، وبدأت أغالب النوم ، ليس من باب الوجاهة من فضلك ، ولكن لأنى لم أنم دقيقة واحدة ليلة السفر وصحوت والطائرة تقترب من روما ، ومضيفة الطائرة توزع علينا استمارات الجوازات لنملأها ، تنبهت فى هذه اللحظة فقط إلى جارى الشاب وهو حائر كيف يملأ استمارته ، واستجبت على الفور لنظراته المتوددة وعرضت عليه مساعدتى ، وكتبت له بياناتها ، وشكرا . .العفو . . أنا فلان مصرى مسافر إلى لندن . . وحضرتك ؟ فلان صحفى ومسافر إلى لندن أيضا .

وفجأة تذكرت شيئا هاما . . إنك ذاهب إلى لندن لكنك ياصديقى لا تكاد تعرف كلمة من اللغة الأنجليزية فكيف ستعيش هناك ؟ وكيف لم

تحصل كلمة واحدة من اللغة الأنجليزية وأنت كما تقول حاصل على الثانوية العامة وتحاول أن تجد عملا فى لندن ، أسئلة ستظل بلا جواب بالطبع مادام نداء السفر والعمل فى أوربا يغرى الكثيرين من الشباب بالسفر . . فالنهاية هى بالطبع «كيتشين بوى[1] » فى أحد مطاعم لندن وحياة خائفة مطاردة من رجل البوليس ، بعد انتهاء مدة الإقامة ، وسوف تبقى فى لندن بالطبع بعد انتهاء مدة الإقامة وستظل تختفى من رجل البوليس إلى أن يضبطك وهيلا هوب على الطائرة إلى القاهرة مرة أخرى .

المهم ، نزلت فى روما وعرفت موعد طائرة لندن وساعدت «كيتشين بوى المستقبل » فى إجراء الحجز إلى لندن ، وركبت الطائرة وهو يطاردنى خوفا من أن أتوه منه ويفقدنى فى الزحام . وفى الطائرة من روما إلى لندن أيضا ساعدته فى ملء الاستمارات ثم اسر إلى بمخاوفه من أن يفشل فى الحصول على تأشيرة دخول إلى لندن ، فبريطانيا أن كنت لا تعرف هى الدولة الوحيدة – فى حدود معلوماتى – فى العالم التى لا تعتبر تأشيرة الدخول التى تحصل عليها من سفارتها فى أى مكان نهائية لذلك فأنت حين تصل إلى مطار لندن سوف تخضع لاستجواب جديد من ضابط الجوازات فى المطار يسألك خلاله عن غرضك من الزيارة ومدة الإقامة والنقود التى تحملها ويملك أن يلغى تأشيرة دخولك ويحتجزك فى المطار حتى يعيدك إلى بلدك على الطائرة التالية . قال لى « الكيتشين بوى » إنه يريد تأشيرة دخول لمدة ٦ شهور ليتمكن خلالها من ترتيب أموره والبحث عن عمل ، وأنه لم

(١) كيتشين بوى« صبى مطبخ » يقوم بغسل الأطباق وهو عمل لا يحتاج إلى معرفة لغة .

يزر لندن من قبل ولا يعرف كيف يجد طريقه بها لكنه يحمل عنوان بعض أصدقائه الذين سبقوه إلى العمل فى لندن وسيحاول أن يذهب إليهم .

اقتربت الطائرة من لندن وأطللت من النافذة لأرى صورتها لأول مرة ، وكانت فعلا صورة رائعة لو أردت أن أصورها لك لقلت لك إنك ترى من نافذة الطائرة سجادة جميلة مكونة من لونين فقط الأحمر والأخضر ، الأخضر لون الحدائق والمزارع التى تنتشر فى كل مكان والأحمر هو لون سقوف البيوت الإنجليزية الشهيرة .

نزلت من الطائرة ومشيت فى ممرات المطار ومن خلفى رفيق السفر ، واكتشفت أن هناك ممرات للخروج من دائرة الجوازات ، ممر للمواطنين الانجليز وهؤلاء تستقبلهم ابتسامة ونظرة على الجواز وهو مغلق ، ثم مع السلامة . وممر للقادمين من دول الكومنولث ، وهؤلاء أيضا لا تستغرق إجراءات جوازاتهم لحظات ، ثم ممر ثالث مكتوب عليه « جوازات السفر الأخرى » . أى جوازات أمثالنا من غير المحظوظين . طابور طويل، ينظمه رجل بوليس، و١٠ ضباط جوازات يجلس كل منهم إلى مائدة عالية صغيرة تحمل رقما ، وكلما خلا واحد منهم من العمل ، سمح رجل البوليس لأول الطابور بالدخول ووجهه إلى رقم ضابط الجوازات الخالى .

قال لى رجل البوليس : رقم ٤ ، فاتجهت إليه ودفعت إليه بجواز سفرى فتناوله بوجه غير معبر ، ثم سألنى بلهجة رسمية :

– كم ستبقى من الوقت فى بريطانيا ؟

– أكثر قليلا من ٣ شهور .

– ماذا ستصنع فى بريطانيا ؟

– سألتحق بدورة دراسية بمعهد طومسون للصحافة فختم جواز السفر ومد يده إلى به فى صمت وانصرفت . خلال حوارى معه كنت ألمح رفيق السفر أمام ضابط الجوازات المجاور لى وأتخيل حاله وأدعو اللّه أن يوفقه فى محنته ، وخرجت من دائرة الجوازات إلى الدائرة الجمركية إلى الباب الأخضر إلى خارج المطار فى لحظات ،وعلى باب المطار التقيت بالكيتشين بوى ووجدته حزينا وقال لى : طلبت من ضابط الجوازات إقامة لـ٦ شهور فأعطانى إقامة لـ٣ شهور فقط . فى هذه اللحظة فقط نظرت إلى خاتم الجوازات على جواز سفرى ، فوجدته قد أعطانى إقامة لـ٦ شهور ، قلت فى نفسى : هكذا الدنيا لا تعطى المحتاج أبدا ، لقد طلبت إقامة لمدة ٣ شهور فأعطانى ٦شهور وطلب الكيتشين بوى ٦شهور فأعطاه ٣ شهور . صحيح دنيا بنت دنيا كما يقول صديقى أحمد بهجت ، ترى أين أنت فى هذه اللحظة يابهجت ، تكتب بالقلم الرصاص وتمسح بالأستيكة ما تكتبه فى مكتبك بالأهرام أم تجلس وسط شلة من الأصدقاء بعد منتصف الليل فى شقتك بمصر الجديدة – تكتب لحظات وتبادلهم الحديث لحظات أخرى ؟ ! هذه أيضا عادة أخرى من عاداتى أن أتذكر أصدقائى فى مناسبات غريبة وأحس بالحنين لهم من غير مناسبة !

فى الطريق

قبل أن أركب الطائرة كنت قد تلقيت رسالة من المعهد ترحب بى طالبا فى دورته الدراسية الجديدة ، وتقول كلماتها إنهم – أى إدارة المعهد –«يتطلعون» بشوق إلى موعد وصولى إلى انجلترا ليسعدوا باشتراكى فى هذه الدراسة الجديدة ، ولن تفهم مدى الأدب والرقة فى هذه الكلمات إلا إذا عرفت أن هذه الدراسة منحة دراسية مجانية يتلقى الصحفى فيها دراسة متقدمة عن الصحافة ويقيم خلالها فى بيت من بيوت الطلبة إقامة كاملة على نفقة المعهد ويحصل خلالها على نفقات الانتقال ، أو مبلغ بسيط كل أسبوع « للأشياء الصغيرة » كما يقول الانجليز أو للسجائر والقهوة والشاى ، ومع ذلك تقول رسالة مدير المعهد لى ولكل عضو بالطبع فى الدراسة الجديدة إنهم « يتطلعون بشوق لموعد وصولى »

وبعد هذه المقدمة المهذبة تحدد لى الرسالة بدقة شديدة كل الخطوات التى ينبغى على أن أتبعها لكى أصل إلى فندق « بلومزبرى » فى لندن حيث يتجمع الصحفيون القادمون من أنحاء العالم تمهيدا للتحرك إلى مدينة « كارديف » عاصمة مقاطعة ويلز حيث سنتلقى دراستنا .

جملة إعتراضية : قبل أن أنسى قارن رقة هذه الرسالة بجفاء وبرود طلب استدعاء شاهد مكتوب بالهليروغليفية وبقلم كوبيا على نموذج مبهدل

يتلقاه أى إنسان فى مصر من محكمة لأداء شهادة لوجه الله ، لن يتقاضى عنها أجراً ، ولا « حق الدخان » بل وقد تفتح أمامه باب المتاعب !

المهم : تقول رسالة مدير المعهد إنى سأخرج من المطار فأجد سيارات الأتوبيس العامة على باب المطار مباشرة ، وأنى أستطيع أن أركب إحدى هذه السيارات بتذكرة ثمنها كذا إلى محطة فيكتوريا فى قلب لندن ، وهناك أستطيع أن ألجأ إلى مكتب المجلس البريطانى للتعليم الذى يهتم بشئون الطلبة الوافدين وأطلب إليهم إرشادى إلى الفندق ، فيقوم مندوب خاص بتوصيلى بسيارة أجرة على نفقة المجلس البريطانى إلى الفندق بدون سابق معرفة ، فقط لأنى غريب وقادم للدراسة فى بلاد شكسبير ، وأستطيع أيضا أن أركب سيارة أجرة حددت لى الرسالة مقدما متوسط أجرها لتحملنى إلى الفندق ، فركبت سيارة الأتوبيس ولاحظت أن بها مكاناً مخصصاً للحقائب لأنها سيارات تخدم المطار ، تضع فيه حقيبتك قبل أن تركب الأتوبيس ثم تصعد إلى مقعدك خفيفا لا تزحم ممرات الأتوبيس بأحمالك من الحقائب ، وتحرك الأتوبيس ، وجاء الكمسارى وقطعت التذكرة ففوجئت بأن ثمنها قد ارتفع خلال الفترة من إرسال التعليمات المهذبة إلى أن وصلت إلى لندن ، فأصبح جنيها أو « لحلوحا » استرلينيا كاملا ، ولابد أنه قد زاد الآن وأنا أكتب هذه المذكرات فالأسعار تزيد فى بريطانيا سريعا وخاصة نفقات المواصلات العامة . وصلت إلى محطة فيكتوريا الساعة التاسعة مساء ، ولاحظ أنى بدأت الرحلة فى الثامنة صباحا ، والرحلة إلى لندن لاتستغرق أكثر من ٥ ساعات . لكن اليوم

ضاع فى تغيير الطائرة فى روما وانتظار موعد طائرة لندن ، وفجأة اكتشفت شيئا غريبا تعجبت من نفسى كيف لم أتنبه له فى بداية الأمر ، هو أن ساعتى تقترب من التاسعة والنهار الأبيض لا يزال يملأ سماء لندن ! كيف ! هذا هو ما حدث السماء صافية والنور يملأ الدنيا ، متى يجىء الليل إذن ! لم أعرف جواب سؤالى فى تلك اللحظة لكنى عرفت فيما بعد أن نهار لندن فى مثل هذه الشهور من كل سنة ابتداء من أواخر إبريل وحتى أوائل الشتاء ، يبدأ قرب الساعة الرابعة والنصف صباحا ويمتد حتى قرب العاشرة مساء ، وأنه مقابل هذا النهار الصريح الطويل ، يأتى الشتاء فتنخفض ساعات النهار ويطول الليل حتى يبدأ حوالى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ويمتد حتى الصباح التالى ، وأحيانا لا يطلع النهار نهائيا فى الشتاء فيحول الضباب دون تسرب الضوء إلى الشوارع فتخرج إلى الشارع فى الصباح وتذهب إلى عملك فى عتمة شبيهة بنغبشة أول الليل فى مصر ...

وصل الأتوبيس إلى محطة « فيكتوريا » ، وهى قلب منطقة مواصلات مدينة لندن ، فلم أحاول أن أبحث عن مكتب مجلس التعليم البريطانى واتجهت إلى باب الخروج ووقفت فى طابور من الركاب ينتظرون سيارات الأجرة ، وكلمة الانتظار هنا ليست دقيقة فالحق أنهم ينتظرون فقط انتهاء أول الطابور من وضع حقيبته فى التاكسى وتحرك السيارة ، لكى تأتى سيارة أخرى على الفور وتحمل الراكب التالى ، فطابور السيارات الأجرة أطول من طابور الركاب .

ركبت سيارة الأجرة ولاحظت بشبه دهشة أن السائق العجوز نزل بتلقائية وحمل حقيبتى ووضعها فى مكان مخصص للحقائب بجوار مقعد السائق ثم عاد إلى مكانه ، وقلت له اسم الفندق وعنوانه ، فأدار موتور السيارة وانطلق ، ورحت أتفرج على لندن التى أراها لأول مرة فى حياتى من نوافذ سيارة الأجرة وتنبهت فجأة على صوت السائق يقول : « بلومز برى هوتيل » ياسيدى ، ثم ينزل مرة أخرى ويحمل حقيبتى ، وأسأله كم ؟ فيجيب ١٤٠ قرشا يا سيدى ! تماما كما حددت لى تعليمات رسالة مدير المعهد التى تلقيتها فى القاهرة ، وأدخل الفندق وأتجه إلى الاستقبال ، وأقول لموظفة قسم الاستقبال كما حددت لى رسالة التعليمات : مساء الخير ، أننى واحد من فريق معهد طومسون للصحافة ، فتبتسم فى وجهى وتقول : تكرم بملء هذه الاستمارة ، وخلال انشغالى فى تسجيل بياناتها أسمع كلمات بالعربية تنطلق من جوارى وأختلس النظر فأجد وجوها عربية تملأ نفس الاستمارة وأقول لنفسى هؤلاء زملاء الدراسة ، وقد جاءوا من بلادهم إلى مدينة الضباب ، ليشتركوا معى فى هذه الدراسة .

وخلال وقوفى أمام موظفة قسم الاستقبال ، جاء مندوب مجلس التعليم البريطانى بزميلين ، سلمهما إلى قسم الاستقبال ، ثم طلب منها ورقة تفيد أنه جاء إليها بشابين عربيين قادمين للالتحاق بدراسة للصحافة وأخذها وانصرف ، وتساءلت لم هذه الورقة ، ثم تنبهت إلى أنه جاء بهما فى سيارة أجرة وسيعود إلى عمله فى سيارة أخرى ولابد من هذه الورقة لكى تبرر إنفاق ٣ جنيهات استرلينية من أموال دافع الضرائب البريطانى على توصيل

غريبين جاءا إلى لندن لتلقى العلم ، إذ لو كانا سائحين قادمين للسياحة ، وتأكد مندوب المجلس من ذلك من موظفة الفندق لطالبهما بأجر سيارة الأجرة فى الذهاب والعودة ولربما شكاهما إلى البوليس ، فخدمات المجلس البريطانى للتعليم لطالب العلم فقط لا لطالبى المتعة !

قالت رسالة التعليمات التى تلقيتها فى القاهرة والتى بدأت بالكلمات المهذبة عن تطلع إدارة المعهد « بشوق » إلى موعد وصولى أنى سألتقى بالفندق بأحد أعضاء هيئة التدريس بالمعهد وأنه سينظم مهمة سفرنا إلى كارديف بسيارة أتوبيس صباح السبت ٣٠ إبريل لتبدأ الدراسة هناك صباح الاثنين ٢ مايو ، فلم أكد أتم تسجيل بياناتى بالفندق حتى وجدت شخصا يقترب منى ويسألنى بأدب هل أنت أحد أعضاء فريق طومسون ، فأجيب بالايجاب ، فمد يده يصافحنى ويقول أنا إريك فيرث الأستاذ بالمعهد ، أنت حر إلى صباح الغد تستطيع أن تتناول عشاءك فى مطعم الفندق ثم نلتقى فى البهو هنا فى الثامنة صباحا ، وسيتحرك الأتوبيس إلى كارديف فى الثامنة والنصف صباحا ، إلى اللقاء

– إلى اللقاء يا سيدى .

حمل « البوى » حقيبتى إلى غرفتى بالفندق ، وأغلقت الباب على ، وأحسست بتعب السنوات الطويلة التى عملت خلالها فى الصحافة يتجمع ويحل بى فى لحظة واحدة

فها هى لندن بعد طول اشتياق ، لكنى أيضا فى شوق أشد للنوم ولا

مفر من تأجيل تعرفى بها إلى وقت آخر بعد أن أستعيد نشاطى. نزلت إلى قاعة الطعام فرأيت بعض الوجوه العربية فى الفندق وصالة المطعم ، وخمنت أنهم زملاء الدورة لكنى لم أسع للتعرف بأحد منهم . . تناولت عشائى على أنغام الموسيقى وكلمات أغنية رقيقة يغنيهامطرب الفندق ، ولمحت عن قرب مائدة يجلس إليها أثنان من زملاء المستقبل محملة بكؤوس الويسكى ، فالعشاء مدفوع والفاتورة سيدفعها المعهد ، وهما من أبناء شعب يحرم الويسكى فى بلاده ويشربه مع الأفطار كلما غادر أسوار بلاده . عفوا . . عرفت فيما بعد أنه فى هذه اللحظة التى كنت أتناول فيها عشائى ويطلب فيها أبناء البترول الطعام والويسكى بلا حساب كانت زميلة مصرية عضو فى نفس الدورة وتسافر إلى أوروبا للمرة الأولى تجلس فى غرفتها تعانى من آلام الجوع وتبيت ليلتها بغير عشاء ، متصورة « أنهم » لابد سوف يطرقون بابها ويدعونها للعشاء فتعتذر بأن « ليس لها نفس » فيلحون عليها فى الرجاء فتنزل إلى قاعة المطعم وهى خجلة فتتناول عشاءها على استحياء ثم تعود إلى غرفتها مرة أخرى ، **لم تكن تعرف حتى هذه اللحظة أن كل إنسان مسئول عن نفسه فى أوروبا . . وكل إنسان مشغول بنفسه عن غيره ، وأنه كان عليها أن تتخلص من خجلها لتسأل عن قاعة الطعام وتطلب عشاءها بغير دعوة من أحد ، ثم توقع الفاتورة ، فيدفع المعهد نفقات الإقامة والطعام ، يالسذاجتك ياسلوى ويالسذاجة أمثالنا من المصريين وطيبتهم أيضا ، فلو رأيت نهم القادمين من بلاد البترول ، واسرافهم فى طلب الويسكى المجانى ، وبعضهم أكتفى فى الدورة الدراسية**

بهذه الليالى الثلاث التى أمضاها فى فندق لندن ، فلم نروجهه بعد ذلك حتى انتهت الدورة الدراسية ثم جاء ليشهد حفل تسلم الشهادات فى لندن ويقيم فى الفندق مرة أخرى الأيام الأخيرة من الدورة تمهيدا للعودة المظفرة ، لو رأيت ذلك لعرفت كم كنت طيبة القلب وساذجة وأنت تتلوين من آلام الجوع فى غرفتك فى أنتظار الدعوة إلى العشاء .. لكنك نموذج لمعظم المصريين الطيبين

تجمعنا فى الصباح فى بهو الفندق بعد تناول الأفطار ، أردت أن أتصل تليفونيا بأحد معارفى فى السفارة المصرية وكان اليوم يوم السبت ، وهو اجازة ، فأخرجت رقم تليفونه فى بيته ، واتجهت إلى الاستقبال ، وجدت وجها مصريا مهذبا ، بدلا من « جودمورننج » قلت بالعربية صباح الخير ، اتسعت ابتسامته ورد : صباح الفل !

– إزيك ؟

– الله يسلمك .. حضرتك صحفى مصرى ؟ أنا شفت إسم سيادتك فى الدفتر ، إزاى مصر – أقدر أعمل لك أى خدمة ، أنا حاسلم وزديتى دلوقتى فلو كنت عايز حاجة قول لى قبل ما أسلم .

لماذا يخفق القلب دائما حين نسمع اللهجة المصرية فى أى مكان فى الأرض بعيدا عن مصر ، ولماذا نحس بهذا التعاطف كلما التقينا بوجه مصرى يصارع الحياة خارج مصر ؟

أعطيته رقم التليفون ، فأدار القرص وطلب الرقم فكان مشغولا .. فأنتظر دقائق وعاد يتكلم : أنا هنا فى لندن من ٣ سنوات ، عندى إقامة ومتزوج من انجليزية وفى طريق للحصول على الجنسية البريطانية بعد سنوات ، أنا تعبت كثيرا وأشتغلت اعمالاً كثيره متعبة إلى أن استقريت فى هذا العمل .. وحصلت على الإقامة ، أنا نفسى أزور مصر ، لكن منتظر لغاية ما استحق الجنسية وبعدها أسافر مصر كل سنة !

جاء زميله ليتسلم ورديته منه ، فطلب منه برقة أن ينتظر قليلا لأنه يؤدى خدمة لهذا السيد المصرى ، ترى هل حصلت على الجنسية البريطانية الآن ، واستقرت أحوالك ، أم ما زلت مهددا ، بانتهاء الاقامة والترحيل ، ياسعيد يا موظف فندق بلومزبرى المهذب ؟ أرجو أن تكون قوانين الجنسية قد أعفتك من عذاب القلق والانتظار كما كنت تتمنى وترجو !

حانت ساعة الرحيل ، وغادرنا الفندق لنركب سيارة أتوبيس كبيرة تقف أمام بابه ، كنا ٧ فقط – من أعضاء الدورة ومعنا أستاذ المعهد إيريك فيرث وسائق الأتوبيس .

وبدأ الأتوبيس رحلته إلى كارديف مارا بشوارع لندن التى لم أرها حتى الأن وفى منتصف الطريق إلى كارديف توقفت سيارة الأتوبيس فى مطعم لتناول الغداء ، واستأذن خليفة القادم من بلد البترول والشعارات ، ليشرب خمسة ويسكى على عجل فى البار المجاور للمطعم قبل الغداء ، ثم طلبنا طعام الغداء .

وقعت فى أول خطأ شخصى على أرض الأمبراطورية ، جين طلبت وجبة غدائى التى اخترتها ، ثم أردفت طلبى بقولى كما اعتدنا فى مصر .. وسلاطة خضراء من فضلك ! فقد نظر إلى إيريك فيرث نظرة ذات معنى وقال أن السلاطة الخضراء ليست كما فى بلدكم من أطباق المشهيات وانما هى فى بريطانيا وجبة كاملة من الخضر وقطع الجبن والسردين وثمنها يعادل ثمن وجبة من اللحم والمكرونة ، فهل أنت فى حاجة إلى وجبتين ؟

تنبهت لخطئى على الفور .. واعتذرت عن جهلى وأسرعت ألغى طلب السلاطة الخضراء ، وقلت لنفسى ليس مخطئا من قال أن الغريب أعمى ولو كان بصيرا ! ولم يفتنى بالطبع أن ألحظ الواقعية المجردة فى التصرف الانجليزى التى قد يفهمها البعض كنوع من البرود أو البخل ، فايريك فيرث لم يتردد فى أن ينبهنى إلى أنى سوف أكلف المعهد ثمن وجبة زائدة لن أستفيد منها غالبا ، لأنى لا أعرف أن طبق السلاطة الخضراء فى بريطانيا ليس من المشهيات ، وأن ثمنه يعادل ثمن طبق من اللحم ولو جاء فيرث إلى مصر ووقع فى خطأ مماثل يكلفنى أضعاف ثمن الغداء لخجلت أن أنبهه إليه ، أما هو والأنجليز عموما فهم يكرهون السفه ويحترمون النقود احتراما كبيرا ويرددون دائما كلمة سمعتها فيما بعد عشرات المرات عن مثل هذا التصرف وهى : « إنك تنثر فى الهواء قدرا من المال »كما ينثر البعض معطرات الجو فى الغرفة .. وهو تصرف لا يرضون عنه ولا يحترمون صاحبه !

مستر « غيط »

واصل الأتوبيس رحلته إلى كارديف .. وودعنا فى منتصف الطريق فيرث ونزل فى مدينته الصغيرة على الطريق ليقضى اجازة السبت والأحد مع أمه فى بيتها الريفى ، وواصلنا الرحلة وحدنا حتى قرية بناريث فى ضواحى كارديف حيث يقع « الأنترناشيونال هاوس » البيت الذى سنقيم فيه طوال مدة الدراسة .

توقف الأتوبيس أمام الأنترناشيونال هاوس والمطر الخفيف يتساقط من السماء كأنه يحتفل بوصولنا ، ووجدنا على باب المنزل شخصا له لحية صغيرة حيانا بحرارة وصافحنا وعرفنا بنفسه .. أنه رولاندز مدير المعهد جاء يستقبلنا . ودخلنا قاعة البيت ، وجاء مدير البيت مستر « فيلد » أو مستر « غيط » كما أطلقنا عليه من اللحظة الأولى كترجمة حرفية لاسمه ، وهو رجل رقيق باسم الوجه دائما ، فى وجهه صفاء حيرنى طويلا حتى عرفت فيما بعد أنه قس ، وأن هذا البيت تشرف عليه الكنيسة ويقيم فيه طلبة الجامعة الغرباء مقابل حوالى ١٥ جنيها استرلينيا فى الأسبوع ، تتضمن الإقامة والأفطار والعشاء ووجبة الغداء فى يومى الاجازة الأسبوعية ، وهو أجر يعد رمزيا ، كما يعد منصب مدير بيت الغرباء مركزا اجتماعيا مرموقا فى هذه القرية الوادعة .. وتعد خدماته نوعا من النشاط الخيرى ، يساهم فيه فضلاء القرية تطوعا ، وتقربا إلى الله بخدمة أمثالنا من الغرباء .

كانت قاعة الدور الأرضى من البيت مزدحمة بالرجال والنساء فى ملابس السهرة ولم أفهم على الفور سر هذا الجمع حتى شاهدت بينهم عروسا وعريسا بملابس الزفاف الانجليزية التقليدية وفهمت أنها حفلة زفاف ، تقام فى قاعة البيت مقابل إيجار رمزى وأن العريس والعروس سيمضيان أيام العسل الأولى فى الأنترناشيونال هاوس ، واعتبرنا ذلك فألا حسنا !

وزع علينا مستر « غيط » مفاتيح غرفنا ومفاتيح الباب الخارجي للبيت وأعلننا أن الباب الأمامى يغلق فى العاشرة مساء ، وإن الباب الخلفى يغلق فى العاشرة والربع وأن من شاء أن يتأخر فى الخارج إلى ما بعد ذلك له أن يعود فى أى وقت يشاء ويستعمل مفتاح الباب الخارجى ويستطيع أن يشاهد برامج التليفزيون فى قاعة التليفزيون حتى نهاية الارسال فى الواحدة صباحا ، لكنه ممنوع إضاءة صالة الدور الأرضى بعد العاشرة وممنوع لعب البنج بنج بعد العاشرة ، فالبيت يقيم به طلبة مشغولون بالدراسة وينامون مبكرا :.

انصرف مستر فيلد بعد أن صحبنا إلى غرفنا واجتمع بنا مستر رولاندز ليسأل عن مطالبنا ويبلغنا التعليمات :

اليوم وغدا اجازة .. تستطيعون التجول فى « بنارث » والتمتع بساحل البحر الذى يطل عليه البيت .. ، إذا شكا أحدكم من أى مرض عليه فقط أن يبلغ مدير البيت مستر فيلد إذا احتجتم إلى أى مساعدة

اتصلوا به على الفور ، سأحضر إليكم الساعة التاسعة صباح الاثنين لأصحبكم إلى مقر المعهد فى كارديف لنبدأ الدراسة ، أرجو أن تستمتعوا باقامتكم بيننا ، لقد طلب منى مدير البيت أن ألفت نظركم إلى أن هذا البيت ترعاه الكنيسة وأنه مخصص لإقامة طلبة الدراسات العليا ، وأنه بالتالى لا يريد أن « يرى » – وغمز بعينه – أية زجاجات داخل البيت ! وضحك رولاندز ثم قال أنتم صحفيون ولستم معتادين على هذه القيود لذلك فإن المطلوب منكم هو فقط ألا « يرى » مدير البيت زجاجات تدخل إلى البيت ، ثم أشار بيده إلى داخل الجاكت الذى يرتديه كأنه يقول .. من فضلكم اخفوها تحت الجاكت حين تدخلون إلى البيت واشربوا فى غرفكم كما تريدون ! وضحك .. وضحكنا .. وودعنا وشكرناه .. وانصرف !

انصرف كل منا إلى غرفته .. واغلقت باب غرفتى على نفسى وقبل أن أفتح حقيبتى ازحت الستار عن النافذة العريضة ووقفت أتأمل الصورة البديعة التى رسمتها الطبيعة أمامى البيوت الانجليزية التقليدية التى لا ترتفع أكثر من دورين بسقوفها المغطاة بالقرميد الأحمر المنحدرة من الجانبين والخضرة فى كل مكان .. ، بالضبط الصورة التى تخيلتها من قراءتى للروايات الإنجليزية وكونتها فى خيالى للريف الانجليزى الشهير .. وأنا واقف خلف الزجاج فى غرفتى الصغيرة أتأمل هذا المشهد اكتشفت فجأة أنى « الآن قد صرت وحدى ! » على حد قول أمير الدنمرك المعذب هاملت .. فعلا الآن صرت وحدى لا أهل .. لا أصدقاء .. لا معارف .. غريب فى

بلاد غريبة كما يقول المثل ، لكن القلب سعيد .. والصدر يجيش بالأمل فى أيام سعيدة قادمة ، فها أنا الآن لأول مرة منذ ١٧ عاما فى اجازة لمدة ٣شهور من عناء العمل الصحفى ، ومن المنافسة ، وعذاب كل يوم ، ومن الطموح ، والاحباط ، ومضايقات العمل اليومية الصغيرة ، ها أنا لأول مرة طوال هذه السنوات الطويلة سأقرأ الصحف بنفسية الراغب فى أن يتعلم ويكتسب معرفة وخبرة جديدة ، لا بنفسية من يرغب فى أن يطمئن أولا أنه لم تفته مادة صحفية كان ينبغى أن يكتبها هو لا أحد غيره !

بعد ساعات نزلت إلى الدور الأرضى لنتناول طعام العشاء وآه من الطعام الانجليزى الصميم الذى يقدمه بيت صغير فى أعماق قرية صغيرة بجوار كارديف ،

إن الغريب يستطيع دائما أن يستسيغ طعام الفنادق الكبرى فى أى مكان من العالم ، لأنها تتعامل أساسا مع السياح فتراعى اختلاف الأذواق والطباع وتقدم نوعا من الطعام يمكن أن يسمى بالطعام العالمى الذى يقبله كل إنسان مهما كانت جنسيته لكن المشكلة الحقيقية هى مطاعم القرى الصغيرة وبيوت الطلبة التى تمثل طبيعة المطبخ الانجليزى ..... !

وآه مرة أخرى من الطعام الانجليزى ، ومن اللحم الانجليزى البارد المجمد فلسنا وحدنا الذين نأكل اللحوم المجمدة فى العالم ، فالشعب البريطانى أيضا يأكل اللحوم المجمدة ، وإعلانات التليفزيون الانجليزى

تذيع كل يوم إعلانا طريفا يقول: Nothing can beat Newzeland meat «نثنج كان بيت نيوزيلاند ميت» أى لا شئ ينافس اللحم النيوزيلندى ! ولكى تدرك الفاجعة لابد أن تحسب المسافة بين جزيرة نيوزيلاند فى أقصى الطرف الجنوبى الشرقى من العالم بجوار استراليا ، وبين الجزر البريطانية فى الطرف الشمالى الغربى التى تقطعها الباخرة السريعة فى شهور تكون خلالها اللحوم مجمدة فى ثلاجاتها ، قبل أن تفرغ فى بريطانيا وتشتريها إدارة الأنترناشيونال هاوس من السوق بعد عدة شهور أخرى .

صاحبه « المطرح » !

أمضيت يومى السبت والأحد .. أرتب ملابسى .. وأوراق فى غرفتى وأتجول فى الأنترناشيونال هاوس أتعرف على معالمه وأتطلع إلى رفاق الرحلة بقلب فطر على أن يبدأ الآخرين بالحب والثقة إلى أن يتلقى منهم الوخزة تلو الوخزة فيجفل من بعضهم ، فإذا أجفل بعد طول صبر كان من الصعب عليه أن يفتح أبوابه لنفس الأشخاص من جديد .

واكتشفت أن فى الصالة السفلى التى شهدت حفل الزفاف فى اليوم الأول مائدة لتنس الطاولة .. ورأيت عددا من الطلبة يخرجون من قاعة الطعام فيتسابقون للوصول إلى المائدة ليلعبوا .. رحت أرقبهم وانتظر الفرصة لمشاركتهم فهذه هى الرياضة الوحيدة التى أعرفها .. وكلما اقترب منى طالب بادرته بالتحية « جود مورننج » .. أو « جود ايفيننج » .. فلاحظت بعد قليل أن الأوربيين منهم والبريطانيين خاصة يجيبون بتحفظ أما الأفارقة فيجيبون بحرارة وتعلمت من ذلك ومن تجارب أخرى على مدى الشهور التى عشتها فى بريطانيا أن البريطانيين فى أعماقهم لا يرحبون بالأجانب .. فاستنفر فى هذا الطبع القديم الذى اكتسبته من تجارب الحياة وهو أن أتحفظ مع من يبدو متحفظا تجاه الآخرين وألا أسعى إلى صداقة أحد من هؤلاء .. وما أكثر ما نتعلم من الحياة .. وما أعجبه .. فهؤلاء المتحفظون ينتظرون منك دائما أن تبادئهم بالود والتحية ثم يعتادون

ذلك حتى يعتبروه حقا من حقوقهم فإذا انتظرت منهم المعاملة بالمثل اعتبروا ذلك تقصيرا منك وأنا شخصيا لا يستفزنى مثل هؤلاء الأشخاص .. وأذكر مثلا أن طالبا إنجليزيا كان يقيم معنا فى نفس البيت لاحظت أنى كلما التقيت به فى الطريق إلى قاعة الطعام أو فى قاعة الجلوس بادرته بالتحية مبتسما فيجيب مبتسما ولا يزيد ، ثم اكتشفت بعد فترة أنه لم يبدأنى بالتحية أبدا ، فقررت تجاهله .. وفى أول مرة لقيته فيها بعدها لم أحيه فنظر إلى مندهشا كأنى قصرت فى حقوقه ! ورغم ذلك لم يفكر فى أن يحيينى فاعتبرته غير كائن وهى طريقة مريحة جدا للتخلص من متاعب أى إنسان لا يؤدى حقوقك إليك .. أن تعتبره غير كائن فلا تذكره بالخير أو الشر ولا تحسن إليه ولا تسئ إليه فى نفس الوقت فيتحول بالنسبة لك إلى ذرة من ذرات الوجود التى لا تعرف عنها شيئا . وقد عاملت هذا الفتى بنفس الطريقة فلم تمض أيام حتى وجدته يبادرنى بالتحية ويسألنى عن أحوالى فأجيبه بلا تحفظ !

وفى مساء اليوم الأول دق باب غرفتى زميل عراقى شاب ودعانى للخروج معه ومع عدد من زملاء الدورة إلى البلدة القريبة بنارث للتعرف عليها ، فاستجبت سريعا ، وخرجنا نلتمس الطريق إلى بنارث التى تقع على بعد حوالى ٣ كيلو مترات من الأنترناشيونال هاوس .. وسرنا على الأقدام لمسافة نصف ساعة إلى أن وصلنا إليها .. وهى بلدة صغيرة جدا تعتبر من ضواحى كارديف عاصمة مقاطعة ويلز .. وبعد جولة فى شوارعها التى لا تزيد عن ٤ أو ٥ شوارع نظيفة اتخذنا طريقنا بناء على نصيحة بعض

الزملاء الأفارقة من سكان الأنترناشيونال هاوس إلى مشرب أو مقهى « الريلواى » أى مشرب السكة الحديد لأنه يطل على محطة قطار السكة الحديد فى بنارث .

وأمضينا السهرة فى مقهى الريلواى نثرثر وندخن ونتطلع حولنا لنرقب رواد المشرب .. وفى الساعة العاشرة والنصف سمعت جرس الإنذار الأول .. ومعناه أن المشرب سوف يغلق أبوابه بعد نصف ساعة .. وفى الحادية عشرة إلا الربع دق جرس الإنذار الثانى ومعناه أن المقصف لن يخرج منه أى مشروب.. باردا كان أم ساخنا وأن على الجميع أن يسلموا الأكواب الفارغة للمقصف استعداداً للاغلاق .. وجاءت سيدة عجوز نشيطة بها لمحة من آثار جمال قديم لتجمع الأكواب من أمامنا ثم قالت لنا أنها « اللاند ليدى » وترجمتها الحرفية« صاحبة المطرح » ! أو زوجة « اللاند لورد » « صاحب المطرح » .. وأن علينا الانتهاء من تناول المشروبات لكى تجمع الأكواب .. فقلنا لها أن هذه هى ليلتنا الأولى فى بنارث وأننا لم نكن نعرف النظام الحديدى للإغلاق فى المحلات العامة وأسرعنا نناولها الأكواب ونساعدها فى حملها إلى المقصف وهى تبتسم بسعادة وتشكرنا .

وطوال الشهور التى عشتها فى بنارث لم يتأخر جرس الانذار الأول ولا جرس الانذار الثانى عن موعدهما .. ولم تأت الساعة الحادية عشرة مساء إلا وكان المشرب قد أغلق أبوابه وانصرف منه عشرات الفتيات والفتيان الذين كانوا بداخله ليتسكعوا حوله قليلا ثم ينصرفوا إلى بيوتهم أو إلى استكمال السهرة فى مكان آخر يسهر بعد الحادية عشرة .

الفرسان الثلاثة !

صباح يوم الاثنين جاءنا مستر رولاندز ليصطحب البعض منا فى سيارته إلى مقر المعهد فى كارديف وليشرح لمن لا تتسع لهم السيارة كيفية الوصول إلى كارديف بالأتوبيس .. وكنت ممن لم تتسع لهم سيارته فاتجهت مع زملائى إلى الشارع المجاور ننتظر سيارة الأتوبيس التى جاءت فى موعدها بالضبط ، وبعد ٢٠ دقيقة كنا فى كارديف حيث وجدنا رولاندز وزملاءنا ينتظروننا فى المحطة الرئيسية للاتوبيس . قادنا رولاندز بنشاط وحيوية إلى مبنى إدارى يقع فى مواجهة محطة الأتوبيس وتبعناه نشيطين متفائلين إلى قاعة فى الدور الثانى من المبنى تضم ١٢ مكتبا صغيراً على شكل نصف دائرة تتجه إلى منصة عليها مكبر صوت وجهاز عرض صغير للشرائح وخلفها سبورة خضراء اللون .

وبدأ يومنا الأول فى الدورة الدراسية للصحافة بمعهد طومسون .. استغرقت الاجراءات الإدارية الساعات الأولى فوزع علينا رولاندز لوحات صغيرة تحمل إسم كل منا لوضعها على مكتبه خلال الدورة ، ثم وزع علينا « معاطف » قديمة من ممتلكات المعهد لكى نستخدمها خلال فترة الدورة ثم نعيدها إلى إدارة المعهد بعد انتهاء الدراسة ليستخدمها بعدنا الدارسون الجدد بالمعهد ، وخلال الساعات الأولى من يومنا الأول كانت سكرتيرة المعهد قد قامت باستخراج اشتراكات لنا فى الأتوبيس بين

كارديف وبنارث لمدة ٣ شهور لكل منا ثم جاءت بالاشتراكات إلى رولاندز الذى وزعها علينا سعيداً ، وأجاب رولاندز على كل أسئلتنا وأبدى استعداده لمساعدة كل من يحتاج إلى مساعدة فى أى إجراء ، وكان بين الدارسين ثلاثة من الليبيين يستعدون لاستقدام أسرهم للإقامة معهم فى كارديف وطلبوا من رولاندز أن يساعدهم فى استئجار بيوت للإقامة فيها خلال هذه الفترة فوعدهم بالمساعدة وتم ذلك فعلا خلال أيام معدودة .. وانتهت إجراءات المعيشة واستقر كل شئ فى مكانه ، وآن لنا أن نبدأ المهمة التى جئنا من أجلها .. فبدأ رولاندز يلقى علينا أولى محاضراته عن الصحافة الإنجليزية .. ورولاندز محاضر جيد يملك أدوات التأثير فى مستمعيه وخبرته الطويلة فى إدارة المعهد تمكنه من فهم شخصيات ونفسيات الدارسين الأجانب . فيعرف كيف يؤثر فيهم .. وكيف يمزج بين مادته العلمية وبين القصص والحكايات التى عاصرها ليجعل من محاضرته حديثا مشوقا . كما أن خبرته فى إدارة المعهد قد أهلته أيضا لشئ هام هو أن يعرف كيف يختار لغة سهلة لحديثه يفهمها هؤلاء الأجانب بسهولة ، وكيف أيضا يفهم عنهم بسهولة تامة ، على عكس الانجليز المتقعرين الذين يصرون على استخدام تراكيب لغوية مألوفة لهم لكنها غير مألوفة للأجانب الذين تعلموا الانجليزية فى بلادهم ، لذلك كان رولاندز لا يستعصى عليه أبدا فهم أى دارس مهما كانت انجليزيته متعثرة .. بل كان يكمل جملته إذا تعثرت ليعينه على أن يعبر عن نفسه ، على عكس آخرين خاصة من الأساتذة الزائرين الذين كان المعهد يدعوهم لإلقاء محاضرة علينا خارج

برنامج الدراسة ، فما أن يسألهم أحدنا سؤالا بلغة انجليزية سليمة لكن النطق غير مألوف بالنسبة لهم حتى يلتفتوا إلى رولاندز مطالبين إياه بالترجمة بيننا وبينهم بلا أى محاولة للفهم من جانبهم ، فيقوم رولاندز بالترجمة من الانجليزية للإنجليزية .. لكى يفهم المحاضرون عنا ! بعد رولاندز تتابع المحاضرون ، وعرفنا أن أساتذة المعهد الأساسيين ثلاثة هم رولاندز .. وهو « ويلشى » أى من أبناء مقاطعة ويلز ، وبراون وهو ايرلندى ، وإيريك فيرث وهو الانجليزى الوحيد بينهم كما عرفنا أن المعهد يستعين بمحاضرين من الخارج لالقاء محاضرات فى فروع محدودة من علم الاعلام والاتصال .

أى أن هيئة التدريس فى المعهد كانت تضم ممثلين لمعظم مقاطعات بريطانيا العظمى إنجلترا وويلز وأيرلندا الشمالية فلم يكن ينقصنا إلا أستاذ من اسكتلندا ليكتمل تمثيل مقاطعات بريطانيا ! وفى الواقع فإن سلوك كل من الأساتذة الثلاثة كان يعكس إلى حد كبير الاختلافات بين هذه الشعوب فى الهيئة والشكل والمزاج النفسى ! فرولاندز دافئ المشاعر مقبل على الحياة وعلى الأغراب وشكله « ويلشى » فعلا بذقنه المدببة وتقاطيع وجهه المختلفة عن وجوه الانجليز وبراون حاد المشاعر سليط اللسان متأجج دائما بالسخط على كل شئ وخاصة رولاندز الذى يسلقه بلسانه معنا ويتهمه بالبخل وسوء الإدارة وبأنه يفسد هدف الدراسة بأشياء صغيرة لكى يوفر لإدارة المعهد بضعة جنيهات !

وإيرك فيرث متحفظ يفضل أن يترك مسافة بينه وبين الدارسين فى

الدورة ويتصور إنه أستاذ وإن مستمعيه طلبة صغار .. ويتعامل معهم على هذا الأساس ، إلى أن يصطدم ببعضهم ويذكره مدير المعهد بأنه يحاضر صحفيين محترفين لاطلبة صغار السن فيفيق إلى نفسه ويحاول أن يصلح خطأه وأن يكتسب ود الدارسين ولكن بعد فوات الأوان .

وهكذا قدر لنا أن نتعامل خلال شهور الدورة مع شعوب بريطانيا العظمى كلها ممثلة فى أساتذة المعهد الثلاثة وكانت بحق تجربة مفيدة ومثيرة للتأمل فعلا !

يا سيدى .. الإمام !

انتظمت حياتنا فى البيت العالمى وفى الدراسة بمعهد طومسون .. واكتشفنا أن مستر « غيط » قد خصص لنا الدور الخامس من البيت فلا يقيم به سوانا واكتشفنا أيضا أن فى الدور حمامين ومطبخا فتفاهمنا سريعا على أن نخصص أحد الحمامين لاستعمال السيدات والاخر لنا ولم يكن بين أعضاء هذه الدورة الدراسية سوى فتاتين فقط إحداهما سودانية وتقيم معنا فى نفس الدور والآخرى مصرية محررة فنية فى جريدة الأخبار وتقيم فى الدور الثالث ، ولكن لم يكن هناك مفر من التنازل عن أحد الحمامين لاستعمال الصحفية السودانية وزائراتها من طالبات البيت وكتبنا على ورقة بالإنجليزية « للسيدات فقط » ولصقناها على باب الحمام .

وأصبح يومى يبدأ بجرس الإيقاظ فى السابعة صباحا فأنهض نشيطا على غير العادة مع أنى أحتاج دائما إلى من يوقظنى إذا كنت مرتبطا بعمل فى الصباح لسبب بسيط هو أنى أنام بصعوبة شديدة جدا .. وأستيقظ بصعوبة أشد ! لأنى عادة أحتاج إلى النهوض من الفراش قبل أن أستوفى ساعات النوم التى يحتاج إليها جسمى ، وكثيرا ماتذكرت قول الأمام الشافعى : « إنى ماشبعت منذ ست عشرة سنة لأن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة »

وكثيرا ماقلت لنفسى ، وأنا أيضا ياسيدى الأمام ماشبعت من النوم

معظم أيام عمرى مع ان قلة النوم تثقل البدن وتزيل الفطنة وتجلب النوم ! لكن هذا حديث آخر كما يقولون ! ومع ذلك فلقد كنت أنهض تشيطا انفعالا بالتجربة الجديدة ورغبة فى أن أستفيد بكل لحظة من وجودى على أرض بريطانيا .

وكان جرس الإنذار يدوى فى الأدوار كلها يدعونا إلى الإفطار بعد نصف ساعة ، فكنت أنهض سريعا وأحلق ذقنى وأرتدى البنطلون والقميص ثم أخرج إلى الحمام فأفاجأ ببعض الزملاء عائدين منه بالبيجاما والشبشب !

وفى قاعة الإفطار أسحب صينية من المائدة الجانبية ثم أقف فى الطابور إلى أن يأتى دورى أمام نافذة المطبخ لأتسلم أطباق الإفطار وكان دائما إفطارا إنجليزيا تقليديا .. طبق من البيض المقلى مع جامبون أو سجق ، اكتشفت من اليوم الأول أنهما أى الجامبون والسجق من لحم الخنزير فعزفت عنهما واكتفيت أحيانا بالبيض والجبن الرومى والشاى ، ولم يغب ذلك عن الفتاة التى تقدم لنا الطعام فأصبحت تقدم لى البيض وحده بعد أيام من انتظامى فى الإقامة فى البيت .

وعقب الإفطار أعود إلى غرفتى لأرتدى ملابسى الثقيلة استعدادا للخروج ثم نتجمع أمام البيت لنمضى معا إلى الشارع الجانبى ننتظر الأتوبيس الذى كان يصل دائما فى التاسعة و١٠ دقائق خاليا لنكون أول ركابه ، ثم يحملنا إلى كارديف فنصل إليها فى التاسعة و٢٥ دقيقة ونكتشف

أن أمامنا ٢٠ دقيقة قبل أن تبدأ الدراسة ، كنا نمضيها غالبا فى مقصف محطة الأتوبيس ثم ندخل قاعة الدراسة لتبدأ المحاضرة الأولى فى التاسعة و٤٥ دقيقة بالضبط ! ولاحظ هذه المواعيد الدقائقية من فضلك لأنه خلال شهور الدراسة كلها لم يتأخر الأتوبيس عن موعده يوما .. ولم يتأخر موعد وصولنا إلى كارديف مرة .. ولم يتأخر موعد المحاضرة الأولى لأى سبب من الأسباب ، كما لم تتغير طقوس اليوم كله .. ففى العاشرة والنصف كنا نسمع صوت عجلات عربة ترولى صغيرة تقترب من القاعة ثم تدخل تدفعها أمامها سيدة إنجليزية عجوز ترتدى معطفا أبيض فوق ملابسها ثم تقدم القهوة إلى المحاضر أولا ثم تطوف على مكاتبنا لتسأل كلا منا : كيف تريد قهوتك باللبن أم سادة ثم تقدم لنا القهوة وبعد ٣ أو ٤ أيام لم تعد تسأل أحدا وإنما تقدم له مايريد بالضبط ، وتخرج بعد دقائق فلا نراها بعد ذلك إلا فى الساعة الثالثة والنصف حين تعود بعربتها مرة أخرى لتقدم لنا الشاى .

كانت سيدة عجوزا فوق الستين لكن حيويتها وإقبالها على الحياة وابتسامتها الدائمة كانت تلفت النظر وتثير الإعجاب ، وكنت أظنها إحدى موظفات المعهد إلى أن عرفت أنها ربة بيت تساعد نفسها وأسرتها بهذا العمل وأن المعهد متعاقد معها على تقديم القهوة والشاى فقط فى هذين الموعدين وأنها تؤدى نفس العمل لعدة شركات أخرى تعمل فى نفس المبنى ثم تعود إلى بيتها لترعى زوجها .

كنا نستمع إلى ٣ محاضرات فى الصباح ثم ننصرف الى الغداء فى الثانية

عشرة والنصف فنغادر المبنى الذى يقع فيه المعهد لندخل المبنى المجاور له وهو مبنى الصحيفة المحلية فى كارديف التى تملكها أيضا مؤسسة طومسون للصحافة فتصعد إلى الدور الأخير من المبنى لنتناول طعام الغداء فى مطعم الجريدة الذى يتناول فيه محررو الجريدة ورئيس تحريرها غداءهم كل يوم ، وبعد الغداء كان أمامنا ساعة كاملة نستطيع أن نتحرك فيها بحرية إلى أن يأتى موعد استئناف الدراسة فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وكانت هذه الساعة هى متعتى الحقيقية لأنى أتجول خلالها فى شوارع المدينة وأحتسى القهوة فى أحد محلاتها واتفرج على الناس والشوارع والمحلات ... وبعد أيام قليلة كنت قد عرفت الشوارع المحيطة بالمعهد .. واخترت لنفسى مشربا أتجه إليه كل يوم لأشرب الشاى وأقرأ الصحيفة المحلية أو كتابا من الكتب العربية الأدبية التى حملتها معى ، وكان رفيقى الذى طالما بدد وحشتى فى الغربة هو نجيب محفوظ ، إلى أن يحين موعد الدراسة فأعود إلى قاعة الدراسة لنستمع إلى محاضرتين أخريين .

وفى الفترة المسائية من الدراسة لاحظت بعد قليل أن عددنا كان ينخفض إلى ٧ دارسين فقط ، وفى حين أننا كنا نبدأ يومنا دائما ١٠ دارسين ، فقد كان الرفاق الثلاثة القادمون من بلد بترولى « ثورى » يخرجون بعد تناول طعام الغداء المجانى فى مطعم الجريدة إلى « بار » فندق قريب فيعبون من الشراب عبا ثم يعودون إلى بيوتهم التى استأجروها فى المدينة بعد وصول زوجاتهم مكتفين من الدراسة بهذا القدر وراضين عن أنفسهم « وثوريتهم » أشد الرضا ، أما « الرجعيون » من أمثالنا فكانوا

يواصلون الدراسة حتى الرابعة و٤٥ دقيقة ثم يحملهم الأتوبيس إلى البيت العالمي فى بنارث بعد الخامسة ليتناولوا طعام العشاء فى السادسة ، وبعد العشاء نلعب تنس الطاولة ونقرأ بعض أوراق الدراسة ثم نرتدى ملابسنا من جديد لنخرج إلى مشرب السكة الحديد ، وهكذا سارت حياتنا فى أيام عديدة من شهور الدراسة !

موقعه كارديف !

شهدت قاعة الدراسة فى المعهد حادثاً غريباً لم تنمح ذكراه من مخيلتى حتى الآن بل وكثيرا ما تذكرته فعجبت من حالنا. وفهمت بعض أسباب متاعبنا فى العالم العربى . وتمزقنا بل وتخلفنا أيضاً ! ولكن وقع هذا الحادث الذى أسميته فيما بعد « بموقعة كارديف » فى أحد أيام الشهر الأول من دراستنا فى المعهد فلقد كانت المحاضرة مخصصة لدراسة فن المؤتمر الصحفى ، وكيفية التعامل معه كصحفيين محترفين ، وأى نوع من الأسئلة يوجه للمسئول الذى يعقد مؤتمرا .. إلخ وبعد دراسة نظرية ، أعلن البروفسور براون إنه سيجرى الآن تجربة عملية أمامنا لمؤتمر صحفى وهمى ، ليرى كيف سنطبق فيه ما تعلمناه فى المحاضرة ، واصطحبنا من قاعة الدرس إلى الصالون الصغير الملحق بقاعة الدراسة،ودعا طالبا سودانيا يحضر للدكتوراة فى جامعة كارديف ، ويقوم ببعض أعمال الترجمة للمعهد فى أوقات الفراغ ، وكان لسوء حظه فى مقر المعهد فى تلك اللحظة يقدم بعض ترجماته ، فرجاه براون أن يساعده فى عقد تجربة المؤتمر الصحفى ، بأن يمثل دور المسئول الذى نحاصره بأسئلتنا ، وقبل طالب الدكتوراة عن طيب خاطر أن يقدم هذه الخدمة لنا ، وجلس على مقعد فى الصالون ، وإلتففنا حوله وأعلن براون ، أن « مستر حفيظ » وهو اسم الطالب السودانى هو الآن وزير خارجية .... (دولة عربية كان وزير خارجيتها

يزور بريطانيا وقتها) وأن علينا أن نتخيل أننا فى انتظاره فى قاعة كبار الزوار بمطار هيثرو ، حيث سيعقد لنا مؤتمرا صحفيا قصيراً .

وتأهبنا جميعا للعمل ،وابتسم « وزير الخارجية » وقال بالانجليزية : أنى على استعداد للإجابة على اسئلتكم فانهالت عليه أسئلتنا وهو يجيب برزانة وتعقل ، ثم فجأة سأله أحدنا سؤالا حول أحد نزاعاتنا العربية التى كانت مثارة فى ذلك الوقت ، فأجاب مستر حفيظ بما رآه مناسبا للرد على السؤال ، فإذا بالصحفى موجه السؤال ينسى إننا فى مؤتمر صحفى تمثيلى ، وأننا نلعب أدوار صحفيين بريطانيين فى مطار لندن ، ويندفع فى مناقشة عصبية يرد خلالها على إجابة المسئول « ويفندها » من وجهة نظر بلاده هو التى كانت طرفا فى النزاع ! وإذا بزميل ثان يشترك فى المناقشة مفندا رأى زميله الأول وموضحا النوايا والأغراض التى يخفيها وراء رأيه ! وإذا بزميل ثالث يقفز إلى حومة الوغى ليشد أزر زميله الأول .. فلا يتقاعس زميل رابع عن أن يهب لنجدة الزميل الثانى فلم تلبث الدائرة أن اتسعت حتى شملتنا جميعا ، وكنا أحد عشر دارسا فاشتبكنا على الفور فى مشادات كلامية ثنائية وثلاثية ، ولم تسعف الانجليزية بعضنا فركلها جانبا ، وانطلق يناقش ويثبت ويحلل بالعربية ، وفرقعت الشعارات فى سماء الغرفة الملبدة بسحابات الدخان وتبودلت الاتهامات ، واحتقنت الوجوه واشارت الأيدى بعصبية شديدة ، ونسينا جميعا إننا مكلفون بمهمة صحفية انصرفنا عنها إلى مناقشاتنا ونسينا اننا فى هذه اللحظة نجلس فى قاعة الدراسة بمدينة كارديف على بعد آلاف الأميال من بلادنا وأن الجو شديد

البرودة ، والسماء غائمة ، والأ... ...جة ، وأن الجو لا يحتمل كل هذا القدر من التشنجات ! كل ذلك ... الخارجية المهذب ينظر إلينا آسفا ! أما براون فلقد كان منظره وهو ... ر إلينا محاولا أن يفهم ماذا يجرى أو ماذا جرى للمؤتمر الذى نظمه شيئا يستحق المشاهدة بالفعل ! قبل أن يضطر للتدخل لكى يعلن لنا انتهاء المؤتمر .. أو انتهاء المهزلة بمعنى أصح ثم صرف طالب الدكتوراه مشكورا وعاد بنا إلى قاعة الدرس ، وجلس على منصته يتفرس وجوهنا صامتا ثم قال بهدوء بريطانى عريق : هل أجد من يستطيع أن يفسر لى بكلمات مختصرة ماذا جرى منذ لحظات ؟ وصمتنا جميعا .. كانت الوجوه مازالت محمرة والعيون يتطاير منها الشرر ، وقد أشعل البعض سجائره لينفث فى دخانها غضبه ! ثم بعد لحظة صمت تطوعت لكى أفسر له بعض ما جرى متجنبا الإشارة بالطبع إلى الكلمات الجارحة والاتهامات الرنانة التى لم أشك لحظة واحدة فى أنه لم يكن فى حاجة إلى مترجم لكى يترجمها له ! وبعد أن سمع براون موجزا قصيرا لما جرى .. صمت قليلا ثم تفرس وجوهنا مرة أخرى ثم تمتم قائلا :

– انفعاليون .. أنتم قوم انفعاليون .. وهذه مصيبتكم ! ثم أعلن انتهاء المحاضرة ، وغادر القاعة ساخطا ! وقد ظل هذا الحادث العجيب يحيرنى إلى أن قرأت تفسيرا له ولغيره من أمراض العقل العربى .. فى كتاب للدكتور زكى نجيب محمود اعتدت أن أقرأه من حين إلى آخر هو كتاب « تجديد الفكر العربى » فقد قرأت فيه هذه الفقرة :

الفكرة عندنا ممزوجة بشخص صاحبها وكرامته ، أرفضها ترفضه

معها ، وأقبلها تقبله معها ، أنها شبيهة بالكلب فى قول الإنجليز حين يقولون من أحبنى أحب كلبى ، وهى قريبة من بعير المحب وناقة الحبيبة فى تصور الشاعر العربى القديم الذى قال إنه وحبيبته يتبادلان الحب ، فلم يلبث أن أمتد هذا الحب المتبادل ليشمل ناقتها وبعيره « أحبها وتحبنى وتحب ناقتها بعيرى » !

أما أن تنزع الفكرة عن شخص صاحبها لتوضع على أرض البحث – إذ البحث لا يفرش له بساط عندنا إلا فى عالم الأمثال السائرة – فيدور عليها النقاش إيجابا وسلبا وتصحيحا وتكميلا ، دون أن يكون فى كل ذلك ما يمس صاحب الفكرة فى شخصه ولا فى كرامته ، حاكما كان صاحبها أم محكوما ، فذلك ليس من طباعنا ولا هو جزء من كياننا . فإذا عرفنا أن هذه الموضوعية شرط أساسى لأية خطوة يخطوها السائر نحو حياة العلم فلك أن تستنتج من ذلك ما ترى ! .

فكدت بعد أن قرأت هذه الفكرة أن أشك فى أن زكى نجيب محمود كان يضعنا تحت مجهره العلمى ويرقب تصرفنا يوم « موقعة كارديف » وهو يكتب هذه الفقرة ! لولا أنى أعرف أننا لسنا سوى جزء من كل .. ولولا أن أمراض العقل العربى ليست حكرا علينا لكنها ظاهرة عامة لا تحتاج إلى محدث ليروى عنها ! !

* * *

غرام الرفيق !

وقع المحظور .. ووقع الرفيق فى غرام بائعة السمك الصغيرة !

والرفيق هو أحد أعضاء الدورة الذى ينتمى إلى دولة عربية بترولية .. « لم يمنعها » بترولها من إطلاق الشعارات وتصنيف العالم والعرب على وجه التحديد الى « ثوريين » ورجعيين .. وتقدميين وتقهقريين ..

والرفيق عضو خطير فى الحزب الحاكم .. وكان يعمل فى ذلك الوقت مديرا لتحرير جريدة الحزب اليومية ، سألته يوما ماذا كنت تعمل قبل أن تتولى منصبك الخطير هذا .. فقال ببساطة : كنت مديرا لمحطة كهرباء !

إندهشت قليلا لإمكانية أن يجمع إنسان بين « موهبة » إدارة محطة كهرباء وموهبة الصحافة التى ترفعه إلى منصب مدير تحرير جريدة يومية وسألته : أين درست الهندسة ! فقال : لم أدرس الهندسة ولكنى درست القانون ! فسكت لكى لا « ألبخ » أكثر من ذلك ! .. لكننى فهمت أنك لاتحتاج إلى شهادة الهندسة فى بلاد الرفيق لكى تعين مديرا لمحطة كهرباء ولا إلى شهادة الصحافة لكى تعين مديرا لتحرير صحيفة .. لكنك تحتاج فقط إلى بطاقة عضوية الحزب . لكى تكون مديرا لأى شئ من محطة الكهرباء إلى محطة السكة الحديد إلى محطة الإذاعة إلى محطة الصحافة ! !

والرفيق جاء إلى هذه الدورة ليتلقى بعض المعلومات عن الصحافة تؤهله لأن يملأ فمه ببعض العبارات المهنية حين يتحدث عن الصحافة ..

وهو لايحتاج إلى أكثر من ذلك ، ففمه منتفخ جاهز بالشعارات .. والكلمات الضخمة التى يطلقها فى وجهك إذا مال الحديث إلى السياسة .

والرفيق ينظر إلى الناس من علٍ .. شديد الصلف .. ومتكبر وثقيل الدم ويصرعلى أن يكون له فى عالم خفة الدم نصيب فيزعجك برواية نكتة سخيفة ، ثم يتطلع إليك بوقاحة منتظرا منك الضحك بصوت عالٍ ، والويل لك إن لم تفعل ! فأنت إذن خيانى وإستسلامى ليبرالى حقير ! وقد تجرع أساتذة المعهد نكته السمجة مرارا وتجرعناها معهم .. وتحملنا صابرين « تفتيشه » على وجوهنا واحدا بعد الآخر للتأكد من أن الجميع قد ضحكوا وتبينوا خفة دمه الأيديولوجية !

وخلال ترددنا شبه اليومى على مشرب السكة الحديد اكتشفنا أن شلة الشباب الذين يمضون الأمسية فيه يذهبون بعد اغلاق المشرب إلى مكان آخر على شاطئ البحر يبعد حوالى كيلو مترين ليواصلوا السهر فيه اسمه « الكومودور » وهو صالة كبيرة للرقص على أنغام الديسكو ، وفى بعض الليالى التى ضقت فيها بالوحدة استجبت لاقتراح الزملاء بالذهاب معهم إلى « الكومودور » فذهبت وجلست إلى احدى الموائد أرقب جموع الشباب وهى ترقص على أنغام الديسكو ، ومن تكرار ظهورنا فى السكة الحديد والكومودور عرفنا بعض شباب بنارث وعرفونا ، وكانوا جميعا فى حدود العشرين وقد تعلموا فى مدرسة واحدة منذ الطفولة . ودعوناهم مرارا إلى تناول المرطبات على حسابنا فقبلوا الدعوة شاكرين لكن لم يفكر أحدهم فى أن يرد الدعوة لنا أبدا !

وبين هؤلاء الشباب كانت «آن» اللافتة للنظر بجمالها الهادئ وشعرها الطويل على خلاف باقى الفتيات .. وكانت ككل الفتيات والشبان الذين عرفناهم فى بنارث قد تخرجوا من « الهاى سكول » أى المدرسة الثانوية وخرجوا للعمل وبعضهم كانوا ممن يسمونهم فى بريطانيا « تاركى المدارس » أى من لم يكملوا الدراسة الثانوية وخرجوا للعمل وهى ظاهرة موجودة فى بريطانيا وتمثل إحدى مشكلات الشباب هناك الآن .

وطوال إقامتى فى بنارث لم أتعرف سواء فى « السكة الحديد » أو « الكومودور » على شاب واحد من خريجى الجامعة أو يدرس بها ، بل كانوا جميعا من حملة شهادة المدرسة العالية أو من « تاركيها »

وكانت آن هى إحدى هؤلاء الشباب وتعمل بائعة سمك فى سوق كارديف . ولقد وقع المحظور ووقع الرفيق فى غرامها بلا أى رغبة منها ! فبدأ يطاردها بابتساماته ونظراته ودعواته لتناول المرطبات ، وهى تعامله بأدب وتحفظ . إلى أن عرف من زميلاتها تاريخ عيد ميلادها وانتظره بصبر ثم فاجأها يوم عيد ميلادها بخاتم من الذهب ! دهشت له آن طويلا ، وتجمع حولها الشباب يتفرجون على الخاتم ويتعجبون من هذا الشرقى الذى يهدى فتاة لايكاد يعرفها خاتما من الذهب .. ورغم غرابة الموقف فقد قبلته آن وشكرته ونهضت لترقص مع صديقها ! واستمرت فى تحفظها وتعاملها معه بأدب وبعد إسبوع بالضبط جاءته أختها وهى من أعضاء الشلة لتقول له إن عيد ميلادها سيأتى بعد يومين ! ففهم الإشارة ومضى فى اليوم التالى

صاغرا إلى محل الجواهرجى ليشترى منه هدية ذهبية أخرى ، ولم يتغير موقف آن منه سوى فى مجاملته بالحديث إليه كلما خاطبها .. إلى أن جاء يوم وحيَّاها كالعادة ففوجئ بها تجيبه بتحفظ أشد .. فسألها عما غيرها فصارحته بأن زميله الآخر وهو من مواطنيه قد أبلغها أنه متزوج وأب لولدين ، وأنها تحس بتأنيب ضمير لأنها شجعته على التعرف بها مما يهدد كيان أسرته وطلبت منه بأدب ألا يعود للحديث معها مرة أخرى ! **فكان ذلك بداية أزمة « حزبية » بين الزميلين ، فالزميل الذى أبلغها بذلك عضو بالحزب لكنه أقل مرتبة منه لأنه مجرد « نصير » وهى درجة دنيا من درجات العضوية وقد فعل مافعل بدافع غيرته من الرفيق وليس حرصا على أسرته .. إذن هى الحرب ! وإذن هى أزمة جديدة كان علينا أن نتدخل فيها وأن نقرب بين الزميلين ونتنقل بينهما بالمساعى الحميدة ونسمع للأول وهو يعلن حسن نواياه ويؤكد أنه فعل ذلك خوفا على زميله من الاندفاع وراء عواطفه .. ونسمع للآخر وهو يهدد بالكلمات الضخمة مؤكدا سوء نية زميله ويهدد بالويل والثبور حين يعودان معا إلى أرض الوطن ، وكانت حكاية من حكايات الدورة الدراسية التى لا تنسى !**

وذورى .. يا دنيا !

زملاء الدورة الدراسية نماذج متباينة من البشر. وحين بدأنا الدراسة طلب منا مستر رولاندز أن يتحدث كل منا لمدة ١٠ دقائق عن نفسه وصحيفته وتجربته فى العمل الصحفى .. فكانت محنة لبعضنا لأن الحديث بالإنجليزية فيما يشبه المحاضرة يختلف عن سماع المحاضرات وفهمها ، وكان أكثرنا يفهم الانجليزية بأحسن مما يتحدث بها ، ورغم ذلك فقد قبل بعضنا المخاطرة وتحدث عن نفسه بالإنجليزية .. وتراجع البعض فأذن له رولاندز فى الحديث بالعربية لأن الهدف هو أن يعرف بعضنا الآخر أما هو فيعرف عنا ما يكفيه من ملف أوراقه فى المعهد . وكانت هذه المحاضرات القصيرة فرصة لأن أتعرف على شخصيات زملاء الدورة الذين ساهمت تجاربى معهم فيما بعد أن أكون عنهم صورة قريبة من الواقع .

ولأنى أكتب هذه المذكرات بعد عشر سنوات تقريبا من هذه الدورة الدراسية فلقد أتيح لى بأن أتتبع أخبار بعضهم وأن ألتقى بالبعض الآخر فى عواصم بلادهم وأن أعرف ماذا صنعت الدنيا بكثيرين منهم .

كان أقرب زملاء الدورة إلى قلبى صحفى أردنى اسمه عونى .. شدنى إليه برقته ودماثة أخلاقه ، وبنفوره من بعض تصرفات أثرياء البترول من زملاء الدورة وقد تقاربنا خلال الشهور التى عشناها فى بنارث وتزاملنا فى

كل مراحلها إلى أن حملتنا سيارة الأجرة بعد نهاية الدورة إلى مطار هيثرو لأركب الطائرة إلى القاهرة وليركب هو طائرته إلى عمان .

وبعد فترة التطلع الأولى إلى التعرف على الحياة الجديدة من حولنا .. زهدنا فى الذهاب إلى مشرب السكة الحديد والكومودور، وأصبحنا نمضى معظم الأمسيات فى غرفتى حيث تنضم إلينا « منى » وهى طالبة أردنية كانت تدرس الوثائق والمكتبات فى جامعة كارديف وتقيم بالبيت العالمى ، و« سلوى » الصحفية المصرية التى تشاركنا الدورة وأحيانا « آمال » الصحفية السودانية من زميلات الدورة ، وقد إكتسبنا خبرة ثمينة من تجاربنا فى البيت العالمى .. وعرفنا أن عشاءه الميكروسكوبى مع ما يحتويه أحيانا من أطباق غريبة على أذواقنا لا يصمد لأكثر من ساعتين نعانى بعدهما من قرصات الجوع حتى الصباح .. فأصبحنا نتبع ما أسميته بنظام « عشاء أول .. وعشاء ثان » . عشاء أول فى مطعم البيت حيث نأكل ما تقبله شهيتنا منه وعشاء ثان فى غرفة أحدنا بعد ساعتين نصنعه فى مطبخ الدور ويضم غالبا مكرونة تتفنن فى صنعها بالطريقة المصرية سلوى ، وهكذا صمدنا للحياة فى بريطانيا العظمى ؟

وجالسين على الأرض فى غرفتى أمضينا ليالى عديدة فى سمر يخفف عنا وحشة الغربة .. بعضنا يقرأ والبعض الآخر يلعب الشطرنج .. والبعض الثالث يصنع الشاى ، والاغانى العربية تنبعث باستمرار من جهاز التسجيل ، وقد جمع بيننا الاغتراب فربط بين قلوبنا بروابط متينة .

وإلى هذه الجلسة كان ينضم إلينا فى أحيان كثيرة « بيير » وهو شاب من كولومبيا بأمريكا الجنوبية يعمل أبوه مديرا لبنك فى كولومبيا وقد ألحقه بوظيفة صغيرة فى فرع البنك فى كارديف ليجرب الحياة وحده ويحسن من مستوى لغته الإنجليزية .. وبعد شهور أرسل إليه شقيقته الصغرى « ماريا » لتعمل معه فى نفس الفرع ولتعيش نفس التجربة ، فكانت تنضم إلى جلستنا أيضا وتؤكد لنا فى البداية أنها لم تترك بلادها وتعبر المحيط إلى بريطانيا من أجل شقيقها كما قد نتصور نحن بعقليتنا الشرقية وإنما لتخوض تجربتها فى الحياة وتكسب خبرة جديدة ، وبالفعل فلقد كان لكل منهما حياته المستقلة .. فيقيم كل منهما فى غرفة من غرف البيت العالمى ويعيش فى حدود مرتبه الصغير وكان بيير أكثر إنفاقا منها فينفد مرتبه قبلها ويحاول الاقتراض منها فتقرضه مرة وترفض مرات لأنه ينبغى أن يتعلم كيف يعتمد على نفسه !

وكذلك كان ينضم إلينا « مرتضى » وهو طبيب عمانى خفيف الروح كان يدرس للزمالة الطبية فى جامعة كارديف ، « وأحمد » السودانى وهو صيدلى كان يحضر الماجيستير ومتخرج من جامعة جلاسجو فى إسكتلندا ، وكان ينضم إلينا من حين إلى آخر زوار آخرون من طلبة البيت العالمى الذى كان بحق برج بابل بما يضمه من جنسيات مختلفة ولغات عديدة متباينة .

ولقد حملت دائما ذكريات جميلة لهذه الجلسات .. وبعد أن أنتهت دراستنا وعدنا إلى بلادنا سمحت لى ظروف كصحفى بأن ألتقى ببعضهم بعد

سنوات فكنت ذات يوم فى مسقط عاصمة عمان فى رحلة صحفية فسمعت فى الإذاعة برنامجا طبيا يجرى فيه المذيع حوارا مع مدير المستشفى الحكومى فى مسقط وسمعته يقدمه فإذا به مرتضى صديق سهرات البيت العالمى فى بنارث ، فسعدت جدا بهذا الإكتشاف وأسرعت أتصل بالمستشفى تليفونيا وأتحدث إليه وكم كانت دهشته وسعادته حين أتصلت به وكان لنا لقاء حار استرجعنا فيه ذكريات بنارث الجميلة .

وذات يوم كنت فى الخرطوم مدعوا لحضور المؤتمر العام للاتحاد الإشتراكى السودانى المنحل ، فلمحت فى أبهاء المؤتمر آمال الصحفية السودانية التى شاركتنا الدورة ، وكان لقاءا حارا مثيراً وسألتها عن أحمد رفيق ليالينا فقالت لى أنها لم تره فى الخرطوم أبدا وأنها تعتقد أنه أما قد استقر فى بريطانيا وأما أنه يعمل فى أحد الأقاليم السودانية البعيدة . وذات يوم كنت فى عمان عاصمة الأردن فى رحلة صحفية أخرى فسألت مدير مكتب وكالة أنباء الشرق هناك عن « عونى » فاتضح أنه من أصدقائه وأسرع يتصل به فجاء مسرعا وكان لقاء حاراً تجددت فيه بيننا المشاعر الأخوية .

وذات مرة كنت فى عاصمة بلاد الرفيق فى رحلة صحفية أخرى فخطر لى أن أسأل عن « الرفيقين » الذين زاملانى فى الدورة وأن لم يكونا من أصدقائى المقربين فيها فعرفت أن الرفيق الصغير يعمل ملحقا صحفيا فى أحدى سفارات بلاده ، أما الرفيق الأكبر المتغطرس فقد سمعت من أمره

عجبا ! إذ كنت قبلها قد عرفت إنه قد واصل صعوده فى الحزب وفى الحكومة -حتى أصبح السكرتير الصحفى لرئيس بلاده وجمعتني مائدة العشاء فى حفل لوزارة الأعلام هناك برئيس تحرير صحيفة الحزب فسألته عن أخبار الرفيق فقابل سؤالى عنه بالوجوم ! فأحسست أنى قد ارتكبت خطأ لا أعرفه لكنه عاد يقول لى أنه بخير ثم لا يزيد ! فسكت وفهمت أنه لابد ، وعندما سافرت إلى الأردن بعد ذلك والتقيت بعونى هناك فسر لى الأمر بأن الرفيق قد استمرأ نعيم السلطة بعد صعوده السريع .. فلم يلتفت إلى أن رئيس بلاده قد فتح باب التطوع أمام موظفى الرئاسة لأداء واجب وطنى معين هناك فتقدم الجميع إليه إلا الرفيق الذى طالما صدع رؤوسنا فى كارديف بالكلام الضخم الفخم عن النضال والكفاح والجهاد ، وبعد فترة طلب الرئيس كشوف موظفى الرئاسة ليعرف من منهم قد لبى نداء التطوع فعرف أن سكرتيره الصحفى لم يتقدم فاستدعاه إليه بعد أن قرأ ملفه الشخصى وقال له لقد قدم لك الحزب الكثير فأصبحت تملك بيتا وسيارات و.. و.. فلماذا لم تقدم له ما ينتظر منك ؟ فأجاب مرتجفا سأقدمه الآن فورا ! فأجابه الرئيس : نعم ستقدمه بالفعل ولكن بعد أن تجرد من كل هذه المكاسب ! وبالفعل تم تجريده من مكاسبه ووظيفته .. وبعد أدائه للواجب الوطنى سمح له بأن يكتب بعض المقالات فاندفع يكتب من جديد عن النضال والكفاح والثورية ويندد بالخيانية والأستسلامية والتصفوية !

أما الجماهيريون الخمسة الذين كانوا من زملاء الدورة فلم أعرف عنهم

شيئا بعد ذلك لأنى لم أزر بلادهم أبدا ، لكنى سمعت أن أحدهم قد صعد نجمه فى بلاده لأسباب لم أعرفها . والحق أنهم كانوا خمسة على الورق لكنهم فى واقع الأمركانوا أربعة وأحيانا ثلاثة ، إذ أن أحدهم أكتفى بأيام الضيافة الثلاثة الأولى فى لندن ولم يصاحبنا إلى كارديف وعاش فى لندن يتمتع بمباهجها ثم زارنا بعد شهرين زيارة « استطلاعية » لمدة يوم واحد ثم اختفى فلم نره أبدا بعد ذلك ، كما أن أحدهم قد « تعذب » كثيرا ليروض نفسه على ترك لندن والذهاب إلى كارديف للالتحاق بالدورة الدراسية فلم تطاوعه نفسه على ذلك إلا بعد مضى شهر من الدراسة ، وحين جاء احتفظ لنفسه بمسكنه فى لندن وأصبح يأتى ٣ أيام فى الأسبوع ثم يسرع بالعودة إلى لندن وكلما رآه براون فى قاعة الدراسة قال له ساخرا « مرحبا بعودتك » « Wel come back »

أما الثلاثة الآخرون فلقد كانوا أكثر انتظاما فى حدود طاقاتهم كأصحاب « عيال » وأسر إذ كانت أسرهم تصحبهم ويقيمون فى مساكن بعيدة عنا فكانوا يحضرون محاضرات الصباح ويتخلفون دائما عن محاضرات بعد الظهر ، وقد دخل قلبى أحدهم كان يمضى فترة المحاضرات الصباحية صامتا باسما مهذبا مع الجميع فأحببته لذلك ، لكنى للأسف عرفت قبل نهاية الدورة أنه لا يعرف كلمةٍ واحدة من الانجليزية وأن فترة المحاضرات كانت بالنسبة له عذابا أليما يتجرعه الرجل فى صبر وصمت وفى اليوم الأخير له فى الدورة طلب منى أن أكتب باسمه رسالة شكر للمعهد على جهوده معنا ، فكتبت له بضعة سطور عن الدورة الدراسية وكم استفدنا

منها الخ ، وأعطيتها له فسلمها إلى براون الذى قرأها ثم قال لى جادا لأول مرة أننى أتمنى لو كان ما فى هذه الرسالة صحيح .. لكنه ليس كذلك للأسف !

يحبنا .. ونحبه !

لا يعرف أحد حتى الآن سر العلاقة الخفية بين الأماكن وبين البشر. أن هناك أماكن نراها لأول مرة فنحبها .. وأماكن أخرى نراها عشرات المرات فنكرهها ونزداد بها ضيقا .. أيكون الحال مع الأماكن والجماد هو نفس الحال مع البشر؟أو لسنا نلتقى بأشخاص فننجذب إليهم من الدقيقة الأولى ونلتقى بأشخاص آخرين فنحس بأن حجرا كبيرا قد جثم فوق صدورنا .. لماذا إذن نتعجب من أن تكون علاقتنا مع المكان مشابهة لعلاقتنا بالانسان فى هذه المشاعر .. لقد قرأت أن الرسول عليه الصلاة والسلام أشار ذات مرة إلى جبل أحد وقال « هذا جبل يحبنا ونحبه ! » ففهمت لأول مرة سر هذه العلاقة الخفية بين الأنسان والمكان

دارت برأسى هذه الخواطر وأنا أتأمل سقوف البيوت المصنوعة من القرميد الأحمر والغارقة وسط محيط من الخضرة من نافذة غرفتى فى مبنى الأنترناشيونال هاوس .. كان الوقت أصيلا كما نقول فى مصر. لكن لا أصيل بالمعنى الحرفى هنا لأن الضياء غامر من الصباح حتى العاشرة مساء فى الصيف ومع ذلك لا نرى الشمس المتوارية دائما خلف الضباب .. نعم أحببت المكان .. وأحببت هذه البقعة التى تطل على شاطئ البحر وأحببت دائما أن أمشى على الكورنيش المطل على البحر فى مواجهة الأنترناشيونال هاوس .. ولولا البرودة الشديدة التى لا أطيقها لاعتبرت هذه البقعة

أجمل مكان فى الدنيا .. لكن ما هذا الأحساس الغريب بالشجن الذى يتسلل إلى نفسى .. أيكون البعد عن الأهل والأحباء هو السبب الوحيد .. أم أن هناك أسباباً أخرى .. ثم ما هذا الصوت المأساوى الذى يتسلل إلى من نافذة غرفة زميلى المجاورة فيزيد من أشجانى ويضاعف من أحساسى بالغربة ؟ .. أنه صوت أسمهان يغنى « قهوة » أو أهوى .. ينبعث من جهاز تسجيل الزميل فيغرينى بالبكاء وأنا جالس وحيدا فى غرفتى أتطلع إلى البحر وإلى سقوف البيوت .

قفزت إلى مخيلتى صور أحبائى البعيدين عنى فأحسست برغبة شديدة فى البكاء .. لكنى بكل أسف أحد هؤلاء الذين يعصاهم الدمع حين يحتاجون إليه .. والقدرة على البكاء نعمة لا يقدرها إلا هؤلاء المحرومون منها .. ولقد كتبت مرة قصة قصيرة لم أنشرها بعد عن شخص يعانى فى حياته الخاصة من ضغوط شديدة وفى عمله من ضغوط أشد ويبحث عن مكان يختلى فيه بنفسه لكى يطلق لدموعه العنان فلا يجد فهو فى البيت تحت أنظار زوجته وأبنائه دائما الذين يرون فيه رب الأسرة القوى المسيطر الذى لا يليق به هذا الضعف ، وهو فى عمله الآمر الناهى الذى يرهب العاملين معه وهو بين أصدقائه هذا الشخص المتزن المتحكم فى مشاعره الذى يلجأون إليه ليشكوا إليه همومهم ، ولا يتصورون أن يكون له هو أيضا ضعفه ، والدنيا من حوله زحام دائما لا يستطيع أن ينجو منه فماذا يفعل وهو يحتاج إلى مكان يختلى فيه بنفسه ويخلع عنه فيه مظهر الرجل القوى الذى يسجنه فيه كل من يعرفه وينفس عما فى صدره ؟ لقد

أستأجر غرفة مفروشة لكى يختفى فيها كلما ضاقت الدنيا به ثم ينفجر فى البكاء والولولة إلى أن يفرغ كل عذابه .. ثم يجفف دموعه .. ويسترد شخصيته ويخرج إلى الناس قويا ومحترما كما كان ليواصل الحياة ! لقد أسميت هذه القصة غرفة البكاء .. وقلت فيها أن كل أنسان يحتاج إلى حائط، يستند إليه كلما دعت الحاجة ليبكى بجواره متاعبه وآلامه ويستريح .. وقلت على لسان بطل القصة أنه سيطالب بإضافة حق البكاء بغير أن يحط ذلك من قدر أحد إلى إعلان حقوق الأنسان ! ثم نسيتها فى أوراقى .. كما نسيت غيرها من القصص والخواطر فلم أسع إلى نشرها .

وبعد هذه السنوات الطويلة التى مرت على بعثتى إلى كارديف مازلت أذكر جلستى بجوار النافذة .. وقلبى يتسلل إليه حزن هادئ .. وصوت أسمهان يدغدغ مشاعرى ويهتف بى أن أدع دموعى تعبر عن نفسها فلا أستطيع !

« شخير » .. فى الأوبرا

إصطحبنا مستر رولاندز إلى زيارة لفرقة أوبرا ويلز فى كارديف وكانت تستعد لتقديم أوبرا « هبوط أورفيوس » بعد أيام فى مدينة قريبة من كارديف وهناك قدمنا إلى إبنته التى تعمل فى ديكورات الفرقة وخلال هذه الزيارة عرفت أن الفرقة شركة كأى شركة من الشركات التجارية مكونة من عدد محدود من الإداريين والفنيين والفنانين وأنها تنتج عروضها وتوزع عائدها على أعضاء الشركة بنسب مختلفة .. وحين عدنا إلى المعهد وعدنا بأن يرتب لنا رحلة إلى مدينة سوانسى لحضور أفتتاح الأوبرا . ولاحظت أنه قال أنه يستطيع أن يصحب معه ٣ أشخاص فقط إلى هذه الرحلة وسألنا عمن يرغب فى الذهاب فتقدمت « سلوى » لأنها ناقدة فنية مهتمة بالمسرح « وآمال » السودانية وتقدمت أنا لأنى من هواة المسرح بكل فنونه وفى يوم الافتتاح طلب منا رولاندز أن نلتقى به فى الساعة الخامسة فى موقف الأتوبيس بكارديف ليصحبنا إلى هذه الرحلة ففوجئنا «بالنصير» زميل الرفيق الأصغر يطلب الذهاب معنا وظهر التردد على وجه رولاندز وأحسست بأنه واقع فى حرج مالم أدركه فى حينه ، لكنه لم يتراجع وقال بعد لحظات حسنا انتظرنى معهم فى الموعد ! حيرنى تردد رولاندز وإحساسه بالحرج ولم أفهم سره إلا حين جاء فى الموعد فإذا به قادم فى سيارته التى لاتتسع إلا لخمسة أشخاص وفهمت أنه كان ينوى أن يذهب

إلى الأوبرا مع زوجته تلبية لدعوة ابنتهما وأنه أراد أن يتيح الفرصة لثلاثة منا من المهتمين بالمسرح للذهاب معهما لكن تطفل « النصير » أفسد عليه خطته ومنعه أدبه من أن يصارحنا بالموقف ، وحين فهمت الحقيقه متأخرا حاولت الاعتذار لكى أخلى مكانى لزوجته فقال لى إن انسحابى لايفيد لأن زوجته لم تستعد للذهاب إلى سوانسى بعد أن أبلغها بالموقف ، ومضت بنا سيارته إلى غايتها ، وفى أوبرا سوانسى استقبلنا مندوب العلاقات العامة للشركة ورحب بنا وقدم لنا مشروبا منعشا قبل الدخول إلى قاعة المسرح ، ثم أخذنا مقاعدنا فى القاعة .. وتهيأت للاستمتاع بالغناء والموسيقى ، وأنا ممن يستهويهم الجو الامبراطورى فى قاعات الأوبرا العالمية وأحب زيارة دورها وقد وقعت فى غرام أوبرا باريس حين زرتها بعد ذلك بسنوات وأمضيت يوما كاملا أتنقل بين أبهائها وأرقب تماثيل مشاهير قواد الأوركسترا والمؤلفين والعازفين الموزعة بينها ، وتذكرت بحسرة قاعة أوبرا القاهرة القديمة المحترقة التى كنا نذهب إليها أيام الدراسة فى الجامعة يوم الجمعة من كل أسبوع لنسمع أوركسترا القاهرة السيمفونى بقيادة المايسترو التشيكى العظيم جيكا ومن قبله المايسترو العبقرى فرانز ليتشاور ، وكل هذا الزاد الثقافى العظيم الذى يرق الحس والوجدان مقابل تذكرة للطلبة بخمسة قروش فقط على ما أذكر !

بدأت أوركسترا الفرقة تعزف الافتتاحية وبدأت أحلق معها فى السماء وأنا من عشاق افتتاحيات الأوبرا بوجه خاص ثم بدأت أحداث الأوبرا وهى من التراث الفرنسى وكتب موسيقاها الموسيقار الشهير أوتنباخ فى عصر

الإمبراطور نابليون الثالث وتحكى عن أسطورة أورفيوس الذى هبط إلى العالم الأرضى ليبحث عن زوجته وعبث الآلهة به خلال رحلة بحثه عنها ! وهى أوبرا ضاحكة جميلة استمتعنا بها كثيرا وضحكنا فيها كثيرا وآلهة العالم الأرضى تعبث بأورفيوس وتدبر له المكائد وكانت ليلة جميلة لم يضايقنا فيها شئ إلا « شخير » « النصير » الذى تطفل على الرحلة وحرم رولاندز من إصطحاب زوجته إليها فقد كان يعتقد فيما يبدو أنها حفل منوعات « فاريتى شو » فلما اكتشف الحقيقة بعد دقائق من بدء العرض راح فى سبات عميق وفسر ذلك فيما بعد خجلا بأنه مرهق !

كاباكا الأول !

كان موضوع المحاضرة عن حق الشعوب فى معرفة الأخبار التى تمس حياتها .. فأثارت المحاضرة خواطرى وتأملاتى إذ لم أفهم أبدا رغم سنوات عمرى الطويلة بالصحافة والكتابة سر العقلية الغريبة التى ترى أن من حقها أن تحجب عن الناس خبرا يعرفه العالم كله إلا أصحاب الشأن فيه ! وتحاول أن تتحكم فى طبول آذان البشر، فتفتحها لكى تسمع ما يحبون لهم أن يسمعوه ، وتغلقها دون ما لا يحبون لهم أن يعرفوه .. والأغرب إن كل ما يرغبون عادة فى ألا يعرفه البشر يكون دائما عنهم ويعنيهم بالدرجة الأولى .وهى عقلية سائدة بكل أسف فى معظم دول عالمنا الثالث البائس ..

ولأنه ليس من المنطق أن تحاول إجراء حوار مع عقلية فاشية .. فلا بد من التخيل لمحاولة فهم المنطق الفاشى الذى يؤمن بحكمة التسلط على تفكير الآخرين وعقولهم ولو أتيحت لك فرصة إجراء حوار مع مسئول من ذلك النوع .. وتوافرت لك أولا الشجاعة الكافية لكى توجه إليه هذا السؤال غير المهذب ، فإن الحوار غالبا سوف يجرى على الوجه التالى :

ياسيادة الحاكم الفاشى لماذا ترى أن من حقك أن تتملك وحدك كل وسائل الاتصال والتأثير فى الرأى العام فلا تسمح لشعبك بأن يقرأ ويسمع

إلا ما تريد لهم سماعه وقراءته ؟ الجواب : نظرة قاسية تزلزلك فى مكانك وفترة صمت طويلة تتحلل خلالها مفاصلك (جملة اعتراضية : هل لاحظت معى أن الفاشست فى أى مكان من العالم يتميزون دائما بنظرات عيونهم الحادة التى يتطاير منها الشرر كنظرات هتلر وموسوليني وعيدى أمين وغيرهم ، قارن هذه النظرات الصاعقة بالنظرة الحالمة غالبا فى عينى أى مسئول ديمقراطى فى العالم !)

قد تطول نظرة المسئول الفاشى إليك لمدة دقيقة أو أكثر يكون الخوف خلالها قد تسلل إلى قلبك وأحسست بالحرج والندم لمجرد تفكيرك فى توجيه مثل هذا السؤال السخيف ، وليس من المستبعد أن تؤثر السلامة وتكتفى بهذا الرد البليغ فتنصرف مرتعدا فى البحث عن عمل فى الخارج .. لكن لأن المناقشة خيالية من الأصل فلنستكملها معا .

بعد هذه النظرة القاتلة التى تلخص بطريقة بارعة كل مشاعر الكراهية تجاه شخصك الحقير سوف يتأهب المسئول الفاشى للكلام فى النهاية ، فيميل إلى الأمام قليلا ثم يبتسم لك ابتسامة صفراء ويقول لك بصوت خفيض :

هيه ... من وراءك ياصديقى ؟

ستلتفت فزعا لترى من يقف وراءك فلا تجد أحدا بالطبع فتجيب بحسن نية : لا أحد ورائى يا أفندم .

فيقول لك بدهاء . لا أقصد من وراءك الآن فى المكتب ، إنما أقصد

من الذى دفعك لكى تسأل هذا السؤال ، وبصوت أكثر رقة سيقول لك وهو يركز نظراته على عينيك : أريدك أن تفتح لى قلبك وتثق بى .. « بذمتك » من دفعك لكى تسأل هذا السؤال .. الشيوعيون .. أم المتطرفون الدينيون أم الليبراليون الكلاب .. أم .. أم ؟

(فمن الطبائع الأساسية لأى مستبد فى أى عصر وفى أى مكان أن يفترض دائما فيك أنك لا يمكن أن تكون صادرا عن نفسك فى أى تساؤل أو أى خاطرة تتعلق بموضوع الحريات. ومن طبائعه أيضا أن يعتبرها قضية مسلمة أن أى متسائل عن الحريات هو بالتأكيد عميل لجماعة أو لهيئة أو لحزب سرى أو لمخابرات أجنبية دفعته لكى يحرجه بهذا السؤال .. ولا بأس بالطبع من أن يكون عميلا مأجورا قبض مبلغا طيبا من المال لكى يحرجه بهذا السؤال الغبى !)

فإذا أفترضنا جدلا أن هذا المسئول كان مختلفا قليلا ومن النوع الذى يحاول أن يفلسف استبداده ويضفى عليه طابعا مزيفا من الموضوعية ، فإنه سيقول لك فى لهجة « علمية » : أننا نحجب بعض الأخبار عن الناس لكى لا تؤثر فى معنوياتهم ولكى لا تتيح للأنظمة المعادية أن تنفذ أغراضها وتؤثر فى الرأى العام وتحقق مخططاتها التخريبية الاجرامية .

إن كنت ما زلت بعد هذا الامتحان الرهيب قادرا على الاستمرار فى المناقشة ، وأنا شخصيا أشك فى ذلك ، فانك ستقول له : لكنك ياسيدى تقرر بذلك أن الناس فى بلادك قاصرون وعاجزون عن الادراك

والتمييز ، وإنك أكثر وعيا منهم .. وهذا ضد منطق الأشياء . إنك تستطيع أن تسمح بنشر الأخبار التى يعرفها العالم ، ومن حقك بعد ذلك أن تعلق عليها وتتصدى لما تتضمنه من تضليل أو أكاذيب . فتقنع الناس بالدعوة ، لا بسياسة إغلاق المحابس كما تفعل أنت .. وسياسة إغلاق المحابس .. مهما حاول البعض فسلفتها لا تهدف إلى حماية الشعوب من التأثيرات الخارجية ، وإنما تهدف إلى شئ واحد تضعه دائما أمام عينيها . وهو تدعيم النظام فقط لا غير وأنت فاهم وأنا فاهم !

أن لم يفقد المسئول الفاشي صبره فيسحب طبنجته من حزامه « ويهفك » رصاصة تنهى المناقشة النهاية الطبيعية لها .. أو إن لم يأمر بإستدعاء الحرس لأنهاء المناقشة بطريقة أخرى فانه سيقول لك غالبا : أبدا إننا لا نقصد من ذلك إلا حماية الجماهير من البلبلة ! !

انتظر لحظة من فضلك ..

هل لاحظت هذه الكلمة « الظريفة » ؟ من المؤكد أنك سمعتها آلاف بل ملايين المرات لكن هل توقفت مرة لكى تفكر فى معناها أو تتأمل كم جرت علينا من مصائب ؟ لقدكانت هذه الكلمة هى دائما مبرر الفاشست فى كل مكان وزمان لحجب الحريات ومنع الاجتماع وحرمان الناس من حق التعبير عن أنفسهم ، ترى من أين جاءت هذه الكلمة العجيبة ؟ ولماذا لا نسمعها أبدا فى المجتمعات الديمقراطية ؟ أقترح أن يهتم المجمع اللغوى بدراسة أصل هذه الكلمة الغريبة ، وأن يحاول أن يكشف عن

العلاقة بينها وبين الميول الاستبدادية لدى الكثير من المسئولين فى العالم الثالث وبعض الدول الشمولية فلا شك أن فى اللغات الأفريقية والأسيوية والأسبانية المنتشرة فى بعض دول أمريكا الجنوبية كلمة مرادفة ومتماثلة فى النطق والموسيقى والأثر السيىء لكلمة « البلبلة » الشهيرة فى عالمنا ، ولا شك أنها تستخدم هناك كمبرر لحجب الأخبار والحريات كما تستخدم لنفس الغرض فى مواقع عديدة من عالمنا .

والمؤكد أنها كلمة عالمية فطبائع الاستبداد كما لابد أنك تعرف .. عالمية وليس بعيدا لو أتيحت لى فرصة مقابلة «كاباكا[1] إفريقى يتحدث اللغة السواحلية ووجهت إليه نفس السؤال لأجاب برزانة تتناسب مع أغطية زجاجات الكوكاكولا التى تنتشر على سترته العسكرية الرسمية . سيناخا .. راخا .. فتاخا .. جلاخا .. بلبلة !

وسوف تكون هذه الهلوسة ترجمة حرفية لنفس العبارة الشهيرة .. أى خوفا من البلبلة !

ولو طرت فى نفس اللحظة إلى أمريكا الجنوبية وقابلت جنرالا يحكم بلاده حكما بوليسيا لصالح شركة الفواكه الاحتكارية الأمريكية الشهيرة ووجهت إليه نفس السؤال لأجاب بالأسبانية وفى تعقل يتناسب مع

(١) هذا التعبير من « نحت » المؤلف المسرحى الكبير الأستاذ على سالم واستخدمه فى مسرحيته « بكالوريوس فى حكم الشعوب » رمزاً لشخصية الحاكم الفاشى فى أفريقيا

شرائط القصب التى تزين « بدلة حسب الله » التى يرتديها : فيرا .. ماديرا .. بوليرا .. بلبلة !

والجملة لا تحتاج إلى ترجمة !

ولو ركبت الباخرة إلى جزيرة مجهولة بالقرب من استراليا تقيم بها جماعات بشرية بدائية ووجهت نفس السؤال لزعيمها المستبد مستعينا بترجمة ساحر الجزيرة لأجاب الزعيم بهمهمة غير مفهومة وبلغة غير معروفة لن أستطيع أن أفهمها ولكنى سوف أميز فى نهاية كلامه هذه الكلمة : بلبلة !

ألا ترى إنى محق فى كراهيتى لهذه الكلمة اللعينة ؟

الحق إنى لا أكره هذه الكلمة وحدها إنما أكن كراهية العالم لأخواتها أيضا .. فبلبلة لها أخوات ككان وأخواتها ، ومن أخوات بلبلة كلمات عديدة منها « التشكيك » .. « والتخريب » .. « والموضوع شائك وحساس ولا داعى لإثارته » .. الخ .. وهى كلها كلمات سمعناها وتجرعناها صابرين خلال تجربة العمل بالصحافة لسنوات طويلة .

تسأل مثلا مسئولا من الدرجة العاشرة سؤالا « هايفا » وأنت بصدد كتابة أو إعداد تحقيق صحفى للنشر ، فيجيب بعد كلمات المجاملة وشرب فنجان القهوة وفى هيئة الحكماء : الموضوع شائك وحساس ولا داعى لإثارته !

والغريب إنك بعد مناقشة قصيرة وربما بعد استئذان الوزير المختص يتحول الموضوع الشائك بقدرة قادر إلى موضوع « بناء وإيجابى .. ومطلوب » ثم يتدفق المسئول فى الحديث .

إنك لا تلوم الأشخاص بالطبع لكنك تلوم دائما النظم التى تزرع الخوف فى نفوس المسئولين وتفقدهم القدرة على التمييز .. لكن هذه قصة أخرى لن ندخل فى تفاصيلها .. لأن الموضوع .. بينى وبينك .. شائك وحساس ولا داعى لإثارته !!

البطاقه المسحوره !

جاءنا زائر من الإذاعة البريطانية ليلقى علينا محاضرة فى علم الإتصال وليعرفنا بنظام العمل فى الإذاعة البريطانية الشهيرة . كان الزائر هو السيد عبد الحفيظ رئيس القسم العربى بالإذاعة أو مستر « هافيظ » كما قدمه لنا رولاندز وألقى علينا الأستاذ عبد الحفيظ محاضرته باللغة العربية ثم اختار منا ٤ أعضاء كنت من بينهم ليدير معنا حوارا عن الدورة الدراسية ليذاع فى البرنامج العربى من الإذاعة البريطانية . فذهبنا جميعا إلى مبنى الإذاعة المحلية فى كارديف ودخلنا الاستديو نحن الأربعة وهو ووقف باقى الزملاء مع رولاندز يرقبوننا من غرفة التسجيل الزجاجية .

كان عبد الحفيظ فلسطينيا حاصلا على الجنسية البريطانية ومتزوجا من انجليزية صحبته إلى كارديف خلال هذه الزيارة ، وروى لنا من بين ماروى أنه حصل على الجنسية البريطانية « بالمراسلة » إذ أنك فى بريطانيا تستطيع أن تجرى كل معاملاتك مع الأجهزة الحكومية بالبريد حتى فى أعقد المسائل كمسألة الحصول على الجنسية ، فالمسألة مسألة أوراق إذا كانت مستوفاة لاشئ يمنع حصولك على ماتريد ، ولاشئ يضطرك إلى الذهاب إلى مكاتب الإدارات الحكومية ، وهكذا حين استوفى شروط الحصول على الجنسية كتب إلى إدارة الهجرة هناك يطلب الحصول عليها فأرسلت إليه نموذجا حكوميا لملئ بياناته ، فأعده وأرسله إليها مع جواز

سفره فتمت دراسة الطلب فى المدة المحددة وتم منحه الجنسية وأُعيد إليه جواز سفره حاملا كل التأشيرات المطلوبة « وكله بالبريد » كما قلنا لأنفسنا متعجبين !

وبمناسبة البريد البريطانى تذكرت الآن واقعة طريفة كان بطلها الرفيق إياه فقد كتب الرفيق بطاقة بريدية لأحد أصدقائه فى بلده وألقاها فى الصباح فى صندوق البريد المجاور لمحطة الأوتوبيس التى نركب منها كل صباح إلى كارديف وذهبنا جميعا إلى المعهد ثم عدنا فى الخامسة مساء فوجد الرفيق البطاقة تنتظره فى البيت العالمى ! ووجد طابعها مختوما بخاتم البريد البريطانى فلم يفهم لماذا لم تسافر إلى بلاده فظن أن قيمة الطوابع كانت أقل مما ينبغى فزاد من عددها ووضع طوابع جديدة بدلاً من الطوابع المختومة ووضع البطاقة مرة أخرى صباح اليوم التالى فى نفس الصندوق وأمضى يومه فى المعهد ثم عدنا إلى البيت العالمى فوجد البطاقة تنتظره فيه ! واستكلف فيما يبدو أن يسأل أحداً عن سبب ذلك فمزق البطاقة وكتب بطاقة جديدة ووضع عليها طوابع مضاعفة .. ولم يشأ أن يلقيها فى صندوق البريد المجاور للبيت العالمى وأنما حملها معه إلى كارديف وألقاها فى أحد صناديق البريد هناك وذهب إلى المعهد ثم عاد آمنا مطمئنا فى المساء إلى البيت العالمى فوجد البطاقة تنتظره هناك منذ الظهيرة ! ففقد صبره وتخلى عن حرصه على ألا يعرف أحد سر البطاقة وصاح منفجرا : إيش ها الحكاية .. الصبح « أدب » البطاقة فى الصندوق « أى ألقيها » .. والعصر ألقاها فى الانترناشيونال هاوس ! تناولنا البطاقة منه وتناقلناها ضاحكين

متعجبين حتى اكتشفنا سرها .. فالرفيق قد كتب عليها بضع كلمات باللغة العربية لصديقه ثم أتبعها بعنوانه فى البيت العالمى بخط كبير بارز فى حين كتب اسم بلاده على رأس البطاقة بخط صغير جدا فكلما وصلت البطاقة إلى مكتب التوزيع .. قرأ الموزع عنوان البيت العالمى فى بنارث ولم يلتفت الى الكلمة الصغيرة فى طرف البطاقة والتى تشير إلى إسم بلاده فيظن أن البطاقة موجهة إلى البيت العالمى ويعيدها إليه وهكذا !

ضحكنا من قصة البطاقة المسحورة طويلا ونصحناه بألا يأمن لأحد عليها واقترحنا عليه أن يسافر إلى لندن ويسلمها بنفسه إلى سفير بلاده ليرسلها الى صديقه بالحقيبة الدبلوماسية خوفا من أن تعود إليه مرة أخرى .. واقترح بعضنا عليه أن يخطف رجله بالطائرة إلى بلاده ليلقى بالبطاقة فى أقرب صندوق بريد فى مطار عاصمة بلاده ويعود بنفس الطائرة مسرعا قبل أن ترتد إليه البطاقة كالسهم .. ووعد ضاحكا بتنفيذ أحد هذين الإقتراحين !

وأعود إلى ماجرى عند تسجيل الحديث الإذاعى فأقول إن مستر حفيظ قد وجه إلينا بضعة أسئلة عن الصحافة فى بلادنا وعن آرائنا فى الدورة الدراسية لمعهد طومسون .. ثم جاء دور أحدنا وينتمى إلى دولة ثورية جدا لاتعرف حرية التعبير بكل صوره وفاجأه بسؤال عن حرية الصحافة فى بلاده ، وإن أنسى لا أنسى صورة هذا الزميل المسكين والعرق يتصبب من وجهه وهو يعرف أن مستقبله ومستقبل أسرته معلق

بطرف لسانه .. وآه مما ينتظره لو أجاب على السؤال بما يرضى ضميره وزميلان له يرقباننا من الغرفة الزجاجية أحدهما بالقطع من كتبة التقارير ، والحديث الإذاعى نفسه سوف يذاع بالعربية وسوف يسمع ويسجل .. أشفقت على زميلى وكان رجلا فوق الأربعين ولم يكن من المقربين للسلطة فى بلاده للشك فى « رجعيته » ! وكدت أمد يدى وأغمزه طالبا منه أن يجيب بما يحفظ عليه وعلى أسرته حقوقهم فى الحياة الآمنة .. وقبل أن أفعل كان قد استجمع إرادته وحب الحياة أقوى من كل شئ .. وانطلق فجأة كأنه يتحدث بصوت مستعار لاتربطه به صلة فتكلم لمدة ١٠ دقائق كاملة حديثا يعد من إعجاز البلاغة العربية وسر إعجازه هو أنه مكون من مفردات لاشك أنها من اللغة العربية لكنها خالية من أى مضمون ولاتربطها ببعضها رابطة ومع ذلك فهى ترن فى الأذن وتعطى الانطباع الخادع بأنها لغة عربية مفهومة ثم راح يلتقط أنفاسه مبهورا ، ومستر حفيظ ينظر إليه باسما وساخرا فى نفس الوقت . تذكرت فى تلك اللحظة مارواه الدكتور طه حسين فى الجزء الثانى من أجمل ماكتب « الأيام » عن أحد شيوخه فى الأزهر فى أوائل القرن العشرين وكيف كان يقول متفاخرا : مما منَّ الله به على أنى أستطيع أن أتكلم ساعتين فلا يفهم عنى أحد شيئا ولا أفهم أنا عن نفسى شيئا ! وهى فيما يبدو « نعمة » أنعم الله بها على كثير من المتحدثين والخطباء فى العالم العربى !

وبعد انتهاء الحديث هنأت زميلى حين خرجنا بنجاته وبلاغته ثم سألته متخابثا بأى لغة كنت تتحدث ؟ فسكت باسما ولم يعلق ! وعندما خرجنا

قلت لزميله « الجماهيرى » الرهيب الذى كان يخشى رقابته محاولا تأكيد براءة الزميل المسكين : لقد تحدث زميلك جيدا ورفع رأس بلادك ! فقال لى ببطء مريب : نعم .. لكنه أخطأ فى إسم بلاده حين ذكره ! فوجدت نفسى أجيب على الفور : معذور ياأخى . فاسم بلادك يحتاج إلى تدريب طويل لحفظه ، خاصة أنه يتغير كل عدة سنوات !

وإنتهى هذا الموقف العصيب !

اليوبيل الناقص !

شاهدت موكب الملكة إليزابيث التاريخى خلال الاحتفال بمرور ٢٥ عاما على تتويجها ملكة لبريطانيا ! [١]

فلقد كانت بريطانيا تحتفل خلال دراستنا فى الدورة باليوبيل الفضى للملكة وكانت الاستعدادات للاحتفال على قدم وساق قبل موعده بشهرين وصور الملكة تطبع على كل شئ على الأكواب الفخارية التى يشرب الإنجليز فيها الشاى وعلى الأطباق الموشاة من الصينى الفاخر ، وفى كل مكان تجد شيئا تشتريه يحمل صورة الملكة وتاريخ تتويجها وتاريخ الاحتفال بمرور ٢٥ سنة عليه . وحين جاء موعد الاحتفال منحنا المعهد أجازة لمدة ٥ أيام فحملت حقيبتى وركبت القطار من كارديف إلى لندن لأمضى العطلة وأشهد الإحتفالات ، إستقبلتنى فى محطة القطار زوجة صديقى جلال سرور الصحفى المقيم فى بريطانيا منذ عام ١٩٧٤ ، واصطحبتنى إلى بيتها إلى أن أنهى عمله فى مجلة الغرفة التجارية العربية البريطانية وعاد فى المساء وفى صحبة صديقى القديم تمتعت بذكريات الصبا والشباب وسماع تسجيلات الأغانى العربية القديمة وبالطعام المصرى الأصيل الذى تصنعه زوجته بعد أن ضقت ذرعا بالطعام الإنجليزى العتيد !

---

(١) فى عام ١٩٧٧

وخلال ليالى الاحتفال كان التليفزيون البريطانى يذيع كل ليلة برنامجا حافلا يذاع من خيمة أقيمت خصيصاً فى هذه المناسبة لتقديم فقرات الإحتفال منها وكانت فقرات مثيرة ومبتكرة وشارك فيها نجوم عالميون أما مذيعها فكان أشهر مقدم برامج فى بريطانيا وهو شالز بروست . ومن بين هذه الفقرات مازلت أذكر فقرة طريفة أعلن خلالها مقدم البرنامج أنه سيستضيف الآن ولى عهد بريطانيا الأمير شارل ليجرى معه حديثا عن أمه الملكة فضجت القاعة بالتصفيق وعزفت الموسيقى السلام البريطانى ثم دخل الضيف فإذا به ممثل كوميدى بريطانى مشهور بتقليد الشخصيات فتضاعف التصفيق والتهليل وانطلقت الضحكات استعدادا للاستمتاع بتقليد للأمير شارل ، وجلس هو على مقعده وبدأ يجيب على أسئلة بروست مقلدا صوت الأمير شارل ولهجته وطريقته فى الكلام وتلعثمه وحركات يديه وجمهور القاعة ومشاهدو التليفزيون فى البيوت يضجون بالضحك استمتاعا ، وكان آخر سؤال فى هذه الفقرة الهزلية وجهه بروست له : لماذا لاتبقى معنا إلى آخر السهرة لتشاهد معنا بقية الفقرات . وكان جواب « الأمير » هو : لاأستطيع لأنى لم أستأذن « ماما » فى السهر وليس معى « مفتاح »قصر باكنجهام لأفتح لنفسى إذا عدت متأخرا !

وضحكت بريطانيا سعيدة !

فى يوم الاحتفال خرج موكب الملكة إليزابيت من قصر باكنجهام فى الصباح ويتكون من عدة مركبات أثرية تجرها الخيول تتقدمها المركبة التى

تقل الملكة وهى مركبة عمرها لايقل عن ٢٠٠ سنة وقد ركبها من قبلها كل ملوك وملكات بريطانيا فى احتفالات التتويج والمناسبات الرسمية . خرج الموكب فى طريق محدد من قصر باكنجهام إلى مقر البرلمان البريطانى حيث جرت مراسم الاحتفال ثم عاد من نفس الطريق إلى القصر وعلى الجانبين كانت تقف جموع البريطانيين والسياح لمشاهدة الموكب مبهورين بتقاليده ومراسمه .

شاهدت موكب الملكة خلال رحلة للعودة فلفت نظرى أنه رغم وجود أعداد كبيرة من الشباب البريطانى والسياح على الجانبين إلا أنهم فى النهاية لايصلون بأى حال من الأحوال إلى عشر عدد المتجمعين فى ساحة أى مولد صغير لأى قطب صوفى فى قرية من قرى بلادنا ، فليس هناك زحام بالمعنى الذى نعرفه والبوليس البريطانى يسمح للناس بعبور الطريق من حين لآخر ولم يزد حين اقترب موكب الملكة عن أن قال لمن يقفون فى نهر الطريق : خلف الحاجز[1] من فضلكم أخلوا الطريق ثم ظهر فرسان الحرس الملكى البريطانى على صهوات خيولهم يتقدمون مركبة الملكة ثم مرت عربة الملكة أمامنا ترتدى تاجها وترفع يدها وكلما مرت أمام مجموعة من الشباب صاحوا بغير انفعال كبير : هيه فتلوح لهم بيدها باسمة ، وينتهى الأمر ! ثم مرت بعدها مركبة الملكة الأم وهى شخصية محبوبة جدا فى بريطانيا وهى أم الملكة إليزابيت وما زالت على قيد الحياة حتى الآن، ثم

---

(١) لابد أن الصورة قد اختلفت الآن بعد أن اجتاح الإرهاب أوروبا فى السنوات الأخيرة ففرض على دولها تشديد إجراءات الأمن بها .

مركبات تقل الأميرات وأزواجهن وباقى أعضاء الأسرة المالكة أما ولى العهد الأمير شارل فكان على صهوة جواد بملابس الحرس الملكى يتقدم مركبة الملكة اليزابيت بعد فرسان الحرس .

أمضيت ساعتين واقفا مع صديقى جلال وأسرته إلى أن مر الموكب الملكى وبدأ المشاهدون ينصرفون وبدأنا نحن أيضا ننصرف فى هدوء فقفزت إلى ذهنى فجأة صورة زحام الاحتفالات العامة فى القاهرة .. وذكريات طفولتى فى مدينة دسوق التى – يخنقها الزحام -- كل سنة فى ليلة الاحتفال بالليلة الختامية لمولد سيدى ابراهيم الدسوقى وقد كدت وأنا طفل صغير أهلك تحت أقدام الرجال فيه « وفرسان » مركز الشرطة يفسحون الطريق لموكب سعادة مدير المديرية الذى شرف المكان . بالطريقة الوحيدة التى يفهمونها لإفساح الطريق وهى الضرب بعصى الخيرزان عمالا على بطال فى جموع الفلاحين فتهرول مفزوعة مخلية الطريق لموكب البيه المدير . فتطأ فى طريقها كل من يسقط على الأرض .. وكنت أنا ذات مرة أحد هؤلاء. **مسترجعا هذه الصورة القديمة إلى مخيلتى قلت لصديقى جلال ونحن عائدون إلى بيته : هذا الاحتفال ينقصه شيء جوهرى لا تصلح الاحتفالات العامة إلا به !**

فسألنى ببراءة : ماهو

فقلت على الفور : الضرب بالعصى !

ومهما .. !

دخلت قاعة الدراسة ذلك الصباح فأحسست بأن شيئا ثقيلا يخيم على جوها ! وقبل أن أصل إلى مكتبى نادانى الزميل الأربعينى المشكوك فى رجعيته وقال لى أنه سمع من الإذاعة المصرية فى الصباح الباكر أن رئيس تحرير الأهرام ومدير تحريره قد تعرضا لحادث سيارة فى الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية وإن مدير التحرير وسائق السيارة قد لقيا مصرعهما .. يا إلهى أنه الرجل الباسم المهذب الذى أرسلنى إلى هذه الدورة وكان ينتظرنى لأحدثه عن تجربتى فيها .. وأحسست بصدرى يضيق وبالرغبة فى الاختلاء بنفسى فغادرت القاعة وعند مدخلها التقيت ببراون داخلا فاعتذرت له عن انصرافى فنظر إلى بعطف وقال لى لا بأس تجول قليلا فى شوارع كارديف إلى أن تهدأ . كان قد قرأ الخبر فى صحيفة « الديلى تلجراف » ويعرف صلتى الشخصية بالراحل محمود عبد العزيز ويعرفه أيضا لأنه كان أحد الدارسين السابقين بالمعهد وكان صديقا حميا لمديره رولاندز .

خرجت إلى الشارع .. وتجولت قليلا ثم اشتريت ورقا وخطابا من أحد المحلات ودخلت مشرب شاى فى شارع سانت مارى وجلست أكتب رسالة لزوجتى مازلت أذكر أول سطورها : « اليوم تلقيت نبأ وفاة المرحوم محمود عبد العزيز الرجل الذى أرسلنى إلى هنا » وأحسست بألم شديد

وصاحبتنى صورته وذكريات تعاملى معه خلال فترة عمله فى الأهرام طوال يومى . كان إنسانا مهذبا بكل معنى الكلمة من هؤلاء الأشخاص الذين يشق عليهم أن يتفوهوا بكلمة نابية أو كلمة خارجة عن المألوف، وكان رقيقا مع الجميع وأمينا معهم وقد تولى منصب مدير التحرير فى الأهرام فى فترة عصيبة سياسيا وصحفيا فلعب دورا توفيقيا هاما بين جميع الأطراف التى كانت تتصارع فى ذلك الوقت للسيطرة على الأهرام .. ولم يشعر الكثيرون بأهمية هذا الدور إلا بعد أن اختاره الله إلى جواره وغاب عن موقعه الهام فى الأهرام .

وأنا أجتر ذكرياتى معه تذكرت هذين البيتين للشاعر المرحوم محمود حسن إسماعيل كان المرحوم الأديب عباس الأسوانى يرويهما دائما ويترنم بهما ويطرب لبلاغة كلمة جاءت فيهما وإعجازها أما البيتان فهما :

لاأرفض الموت لكنى أسائله هل ذقت ما أنت بالانسان فاعله
تأتى بلا شبح تسقى بلا قدح وكل باب . ومهما. أنت داخله

نعم لا نرفض الموت ومن يملك أن يرفضه لكننا نسائله فعلا مع محمود حسن إسماعيل : هل ذقت ما أنت بالانسان فاعله ؟ إننى لا أريد أن أجتر أحزانى على الورق فليس هنا مجالها لكنى أقول فقط إنى كثيرا ماارددت هذين البيتين فى مناسبات أليمة حين فقدت بعد هذه الدورة بسنوات شقيقى الأصغر وكان شهما كريما مطبوعا على حب الناس ومساعدة الآخرين لا يحمل ضغينة لأحد ومن هؤلاء الأشخاص القلائل الذين لا يمكن أن

يعرفهم أحد بغير أن يحمل لهم مشاعر الحب والصداقة والوفاء . وقد فقدته وأنا غائب عن مصر فى رحلة اغتراب أخرى فلم أودعه قبل الرحيل رحمه الله .

ثم بعد أعوام فقدت شيئا جوهريا من نفسى .. حين أختار الله إلى جواره شقيقى الأكبر رحمه الله وكان توءم حياتى وقرينى فى ملاعب الطفولة وزميل دراستى ورفيق صباى وصديق عمرى ، وقد شاءت الأقدار الحزينة أن ألتصق به فى لحظاته الأخيرة وهو ينسحب بهدوء من عالمنا الردئ إلى العالم الأفضل وقلبى ينسحب معه إلى عالم سحيق . رحمه الله .

وبينهما فقدت الكثير والكثير من قلبى ومن حياتى ومن وجدانى مع كل قريب وصديق مضى إلى النهاية المحتومة ، ولن أجتر مرة أخرى أحزانى لكنى فقط سأقول أن العبارة العجيبة التى كان يطرب لها المرحوم عباس الأسوانى فى هذين البيتين هى : « ومهما » وهى عبارة عجيبة فعلا تحمل فى حروفها الخمسة كل جبروت الموت وحتميته وتغنى عن تأليف كتاب فى أنه لا شئ يحول بين وقوع القضاء حين يحين . كان عباس الأسوانى يردد ذلك مؤكدا عبقرية محمود حسن اسماعيل ، ثم أصبحنا نرويها عنه بعد رحيله وغدا يرويها عنا آخرون . وهكذا الحياة ياصديقى !

أمام ڤولتير !

خلال فترة إقامتى فى لندن فى أجازة اليوبيل الفضى زرت معالم لندن وقصر وندسور على بعد أميال منها وطفت بالأماكن التى طالما قرأت عنها وسمعت بها كحديقة هايد بارك « ركن الخطباء » وميدان الطرف الأغر والمتحف الوطنى للفن الذى يضم نفائس فنية لاتقدر بمال ومنها كل اللوحات الفنية الشهيرة التى طالما تمتعت برؤية صورها على بطاقات البريد وفى اللوحات المنقولة عنها فى محلات التحف وزرت متحف الشمع وأمضيت ساعة واقفا فى طابور التذاكر حتى جاء دورى فى الدخول ، وتجولت بين قاعاته منبهرا .. فمررت على مايحتويه من تماثيل لزعماء العالم السابقين والحاليين سريعا ثم توقفت طويلا أمام تماثيل أعلام الفكر التى يضمها .. ياإلهى إننى أقف أمام فولتير[1] فأحس كأنه على وشك أن يرد على تحيتى وأن يمد يده لمصافحتى إنه ضئيل الجسم طويل الأنف مجدور البشرة عيناه زرقاوان لكن عظام وجهه وذقنه تشى بقوة الشخصية هذا إذن هو الرأس الذى أبدع روائع الأدب الفرنسى والتراجم التاريخية والرسائل والكتابات الفلسفية والاجتماعية الجريئة وصب نار الغضب على التعصب الدينى وشرور الظلم الإجتماعى . **هذه هى اليد التى كتبت رواية**

---

(١) فرانسو مارى أرويه الشهير بفولتير مفكر فرنسى عاش بين ١٦٩٤ – ١٧٨٨

كانديد فى ٣ أيام ومأساة أوديب » والصغير الكبير» وكتبت « إن صناعتى هى إن أقول ما أعتقد »و فكر ودع غيرك يفكر ! و « الله والحرية » .. وفى هذه العبارة الأخيرة تجتمع فلسفة فولتير كلها .

إستغرقنى التأمل وأنا واقف أمام تمثال فولتير فتذكرت فجأة رأى الفليسوف الألمانى شوبنهاور خلال إنشغاله باحتفال تخليد ذكرى جوته من أن العلماء والفلاسفة الذين يخدمون العالم برؤوسهم ينبغى أن تقام لهم تماثيل نصفية أما السياسيون والقواد الذين يخدمون العالم بكيانهم كله فينبغى أن تقام لهم تماثيل كاملة وتعجبت من فكرة شوبنهاور من أن السياسيين والقواد يخدمون العالم بكيانهم كله اللهم إلا إذا كان يقصد أنهم يضربون « بالشلوت » فى سبيل الإنسانية ! أو من لاعبى الكرة الذين يسجلون الأهداف فى مرمى الخصوم

إنتهت الجولة فى متحف الشمع بمشاهدة المشهد المجسم لمعركة واترلو بين القائد الفرنسى نابليون والقائد الإنجليزى ولنجتون التى هزم فيها نابليون وتحطمت على أبوابها أسطورته .

وغادرت المتحف وليس فى مخيلتى من صور العظماء والقواد الذين يضمهم سوى صورة هذا القصير الماكر الساخر الذى توقعت الممرضة التى ولدته ألا يعيش أربعة أيام فعاش ٨٤ عاما كرّس معظمها ليحطم ما بالعالم من إدعاء ونفاق . **واختتم حياته بنكتة حين جاءه القس على فراش الموت ليسمع اعترافه فسأله بصوت ضعيف : من أرسلك إلى هنا أيها السيد !**

فأجاب القس : أرسلنى الله إليك ياسيد فولتير فقال فولتير له : هكذا .. أين إذن أوراق اعتمادك ! ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ضاحكا كما عاش طوال حياته ضاحكا ساخرا !

الأطرش فى الزفه !

الويلشيون سكان مقاطعة ويلز قوم دافئو المشاعر أكثر حرارة من الإنجليز الأصليين ولهم لغة خاصة يتكلمها العجائز إلى جانب الانجليزية وتحرص بعض الأسر على تعليمها لصغارهم كما يتناقل النوبيون لغتهم غير المكتوبة هنا فى مصر والسودان ، ولهم أيضا إذاعة ومحطة تليفزيون تذيعان برامجها المحلية من ويلز لعدة ساعات كل يوم ، وفى ويلز حزب محلى يطالب بالإنفصال عن بريطانيا وقيام دولة ويلشية مستقلة تتحالف مع بريطانيا لكنه حزب صغير لاتأثير له وذات يوم دعانا رولاندز لحضور مهرجان سنوى يقام فى مناسبة ويلشية محلية لم أعد أذكرها فركبت سيارة أتوبيس استأجرها لنا المعهد إلى مقر المهرجان على بعد أميال فوجدناه ساحة كساحة مولد السيد البدوى تنتشر فيها الخيام التى تعرض الهدايا الويليشية وفى خيمة كالبالون كان الاحتفال الرئيسى فجلسنا على مقاعدنا فى المقدمة ننتظر بدء البرنامج فبدأ بالنشيد المحلى فلم نفهم منه كلمة واحدة لأنه بالويلشية ثم بدأت عروض الفن الشعبى وأنتهت وجاء دور الخطباء فتوالوا على الميكروفون يخطبون بحماس فائق ويشيرون بأيديهم بعصبية وتتصاعد الدماء إلى وجوههم فتصبغها بالحمرة من شدة الاحتفال ونحن نتلفت حولنا فى حيرة .. فالخطباء جميعا يخطبون بالويلشية التى لانعرف منها حرفا واحدا ، تلفت حولى فوجدت براون ينظر مبتسما ابتسامته الساحرة فسألته : ماذا

يقولون ؟ فأجاب بنفس الإبتسامة : لاأعرف .. لكنهم فيما أعتقد يطالبون باستقلال ويلز وبالإنفصال عن بريطانيا ! فقلت له : هل تعرف الويلشية ؟ فقال : لا .. ولماذا أعرفها أنها لغة ميتة منقرضة فلماذا أجهد نفسي فى معرفتها فقلت له : لماذا جئنا إلى هنا إذن ! فقال باختصار: هذا هو السؤال لقد قلت لرولاندز أن هذه الزيارة لا تستحق عناء الانتقال إليها فالاحتفال لايهم الصحفيين العرب فى شئ والمتحدثون فيه يتحدثون بلغة لايعرفونها وليست هناك ترجمة إنجليزية لما يقولون فلماذا يشهدونه .. لكنه أصر على أن تذهبوا إليه وعلى أن أرافقكم إلى هنا وعلى حضور هذا الاحتفال الرئيسى بالذات . ولابد من الالتزام بالتعليمات لهذا جئنا . قلت له : حسنا لقد عرفنا على الأقل أن فى بريطانيا من ما زالوا يطالبون بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ! كما كان المصريون يهتفون فى شوارع القاهرة فى ثورة ١٩١٩ .

وانصرفت عنه إلى تأمل الوجوه الويلشية المميزة التى تحضر الاحتفال وانتظار أن تنتهى الكلمات الحماسية لنسمع الغناء فهو لغة عالمية لاتحتاج إلى مترجم لكن الخطب طالت والملل تضاعف وبدأ النوم يداعب عيونى وكلما هممت بأن استسلم له انتفضت مذعورا على « شخطة » حماسية من الخطيب فأجده مضرج الوجه بالإنفعال ثم أنظر حولى فأجد الحضور هادئين إلا من قلة صغيرة « تتجاوب » مع الخطيب فى انفعالاته : وأثار ذلك تساؤلى فهمست لبراون بملاحظتى فقال لى : **هؤلاء المتجاوبون هم من ما زالوا يعرفون الويلشية ويتمسكون بها..أما الآخرون الهادئون فهم**

ويلشيون فعلا لكنهم نسوا لغتهم القديمة لذلك فهم لايفهمون المتحدث وأن كانوا يحاولون . ضحكت وقلت له : أنهم مثلنا إذن كالأطرش ف الزفة . ثم رحت أشرح له معنى العبارة وأرددها بالعربية حتى حفظها .. وقال لى ضاحكا : صحيح نحن« أطرش إن[1] زفة »! فى هذا المكان .. هيا بنا منه وليفعل رولاندز مايشاء ! ونهض ضاحكا ونحن وراءه فرحين بالإفراج عنا من هذا المعتقل !

---

(١) يقصد « فى » باللغة العربية (in)

تشكّى لُبَيْدُ !

أيامنا تمضى فى حضور المحاضرات والتجول فى شوارع كارديف وقضاء الأمسيات فى البيت العالمى .. لكن لماذا أصبحت الأيام تمضى بطيئة هكذا ؟ ولماذا أضبح الحزن الهادئ رفيقا دائما بلا سبب واضح ولماذا أصبحت الأعصاب هشة تستجيب لأى استفزاز وقد تكفلت الأيام بعملية انتقاء طبيعية بين زملاء الدورة ورفاق البيت العالمى . فازدادت روابطى بعونى ومنى وسلوى ومرتضى وأحمد السودانى ، وضعفت صلاتى بالرفيق والنصير والجماهيريين الثلاثة ، وبيير ومارى وباقى نزلاء الأنترناشيونال هاوس حتى لم أعد أبدأ أحدا منهم بتحية .. وظننت أنى وحدى الذى أعانى من هذه الحال لكنى أكتشفت أن هذا أيضا هو حال عونى وسلوى ، وأنه فيما أتصور عرض من أعراض « الهوم سكنس » أو مرض الحنين إلى الوطن .. صحيح ما أعجب الانسان ! لقد سعيت إلى الذهاب إلى هذه الدورة بكل إصرار ومن قبلها عاندنى الحظ فى بعثة مماثلة حزنت لضياعها منى بعد أن كانت أقرب إلى من حبل الوريد وكانت لدراسة الصحافة فى المجر وكنت مرشحا لها من نقابة الصحفيين وخضت من أجلها امتحانا شاقا فى السفارة المجرية إستغرق وقت الاجابة التحريرية على أسئلته حوالى ٤ ساعات وكانت أسئلة تشمل معارف عديدة من تاريخ المجر إلى تاريخ المذاهب السياسية إلى فن الصحافة وكان عدد

المرشحين من نقابة الصحفيين لهذه الدورة ستة مطلوب إختيار اثنين منهما فجاء ترتيبى الثانى وأعددت حقيبتى للسفر وفى اللحظة الأخيرة رفضت جريدتى الموافقة على السفر رغم أنى كنت قد حصلت على موافقة مبدئية على التقدم للبعثة .. إذ حين تقدمت بطلب إذن السفر قال المسئول وقتها وكأنه لم يسمع من قبل بأمر هذه البعثه . المجر .. وهل فى المجر صحافة لتدرسها ؟ لا لا أوافق ! وكانت نهاية حلم البعثة بالنسبة لى وسافر التالى فى الترتيب . وحزنت طويلا لضياعها ثم مرت تحت الجسور مياه كثيرة حتى جاءتنى فرصة هذه الدورة الدراسية فسعدت بها واعتبرتها تعويضا عن الدورة الأولى وأقبلت عليها بكل همة .. لكن ما بال الفرحة قد هدأت والضحكة قد خمدت وما بالى أمضى الساعات الطويلة خلف زجاج نافذة غرفتى أرقب شاطئ البحر وأسطح المنازل الحمراء صامتا .. أقرأ قليلا .. وأسرح كثيرا .. وأنتظر أن يطرق بابى أحد من الأحباء ليخرجنى من ضيقى

أيكون حالى هذا هو ما عبر عنه أمير الشعراء أحمد شوقى حين قال :

تشكى لبيد لطول الحياة ولو لم تطل لتشكى القصر !

أم يكون ماعبر عنه الشاعر حين قال :

يطلب الانسان فى الصيف الشتا فإذا جاء الصيف أنكره
ليس يرضى المرء حالا واحدا قتل الأنسان ما أكفره

آه لو لم يكن القلب مثقلا بالوحدة . لضحكت حين تذكرت بيت شوقى كما كنت أفعل دائما لأنى أتذكر معه تعليق الدكتور لويس عوض عليه

فى كتابه الذى أوحى إلى بكتابة هذا الكتاب « مذكرات طالب بعثة » إذ يقول : فهمنا أن يتشكى لبيد لطول الحياة .. لكن كيف يتشكى القصر لو لم تطل ؟ أى كيف يشكو بعد وفاته وبأى لغة ؟

صحيح قتل الأنسان ما أكفره !

وداعا .. بريطانيا !

مضت الأيام بطيئة أحيانا . سريعة فى أحيان أخرى .. واقتربت الدورة الدراسية من نهايتها .. وتحدد الموعد الذى سنختتم فيه الدراسة فى كارديف ووزع علينا رولاندز بيانا يحدد الخطوات الأخيرة من الدورة فإذا به يتكشف عن مفاجأة لم تكن مسك الختام .. فلقد كان النظام الذى يتبعه رولاندز فى تنظيم هذه الدورات تطبيقا عمليا للصورة الهزلية التى تروى إن رجلا قد صنع « تورتة » جيدة الصنع أجهد نفسه فى صنعها وأنفق على شراء مكوناتها بسخاء ثم رأى أن يوفر فى تكاليفها بضعة قروش فرشها بالرمل بدلا من السكر وقدمها لضيوفه !

فلقد كان النظام الذى يتبعه هو أن يعلن اختتام الدورة الدراسية فى كارديف ثم ينظم انتقال الدارسين بالأتوبيس الخاص إلى لندن إلى محطة فيكتوريا وهناك يتركهم للأقدار حيث ينزل كل منهم فى أى فندق صغير يختاره ، وبعد ثلاثة أيام ينتقل إلى فندق « بلومز برى » ليقيم فى ضيافة المعهد لمدة ليلتين أخريين استعداداً لمغادرة لندن .. ولحضور حفل تسليم الشهادات فى مقر إدارة المعهد فى العاصمة البريطانية ..

أما لماذا اختار هذا النظام فلكى يوفر تكاليف إقامة كل دارس فى فندق بلومزبرى لمدة هذه الليالى الثلاث .. معللاً ذلك بأن المعهد يدفع لكل دارس مبلغا صغيراً مقابل الإقامة خلال هذه الفترة !

وكان هذا النظام مثار شكوى الدارسين فى كل الدورات السابقة ومثار انتقاد أساتذة المعهد أنفسهم لكن رولاندز كان يتمسك به ويصر عليه فى عناد غير مفهوم ! وكان من تقاليد المعهد أن يعقد جلسة مناقشة فى ختام المحاضرات يحضرها رولاندز وأساتذة المعهد والدارسون ويبدأ رولاندز المناقشة طالباً سماع ملاحظات الدارسين وانتقاداتهم على برنامج الدورة ، ولاحظت قبل بدء هذه الجلسة أن براون وفيرث يشاركان الدارسين امتعاضهم من تركهم فى لندن لمدة ثلاثة أيام تحت رحمة القدر .. وأنهما يكادان يحرضان الدارسين على مناقشة رولاندز والاحتجاج على هذا النظام خلال المناقشة .

وبدأت الجلسة وطلب رولاندز أن يسمع آراء الدارسين فكانت معظم الآراء تدور حول ما يمكن أن نسميه بالخدمات المصاحبة للدراسة فى الدورة كالشكوى من سوء الطعام فى البيت العالمى .. والشكوى من عدم التزام المعهد باستضافة الدارسين فى لندن خلال الأيام الأخيرة من إقامتهم فيها . أما برنامج الدورة فلم يحظ التعليق عليه أو انتقاده بمساحة واسعة من الاهتمام لسبب بسيط هو أننا كنا مهمومين فعلاً بالبحث عن فندق صغير فى لندن ونخشى ألا نجد مكاناً لنا خلال هذه الأيام الثلاثة السابقة للانتقال إلى فندق بلومز برى ، وكانت حجة رولاندز فى ذلك أن الفندق مشغول خلال هذه الأيام ، أما بروان فلقد قال لنا سرًّا إن هذا غير صحيح لكن رولاندز يحب دائما أن يوفر بضعة جنيهات من تكاليف الإقامة ليثبت لإدارة المعهد حرصه على أموالها .

بعد جلسة المناقشة انصرفنا إلى البيت العالمى لنعد حقائبنا وفى الصباح الباكر جاء رولاندز رغم سخونة المناقشة معه فى الليلة السابقة ، باسماً مؤكدا لنا بطريقة عملية أن الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية . وأظن أنه أحس بشئ من الحرج فعلا حين رآنا نتعثر فى حقائبنا وقواميسنا وكتبنا وأدرك ساعتها كم كان من الأفضل لنا لو أقمنا فى مكان واحد حتى موعد سفرنا ، بدلا من أن ندوخ فى التنقل بين الفنادق الصغيرة ونحن نحمل كل هذه الأثقال نبحث لأنفسنا عن غرف خالية فى قمة الموسم السياحى فى لندن الذى ساهم يوبيل الملكة إليزابيث على ازدهاره وتنشيطه . وبروح رياضية مازلت أذكرها له تقدم منى وحمل عنى قاموساً ضخماً وحقيبة صغيرة ليساعدنى على ركوب الأتوبيس فشكرته بقلب خالٍ من الموجدة على هذه اللفتة الرقيقة وأسفت على أن حدة المناقشة بينى وبينه فى جلسة الإستماع حول هذه النقطة بالذات كانت قد وصلت إلى درجة عالية ، لكن هذه سمة واضحة من سمات العقل البريطانى والغربى بصفة عامة وهى التفرقة بين الخلاف فى الرأى ولو وصل إلى أقصى مداه .. وبين العلاقات الانسانية المفترضة بين المختلفين فى الرأى .

حملنا الأتوبيس إلى لندن وكانت « منى » طالبة الوثائق والمكتبات قد سبقتنا إليها فى مهمة علمية خاصة بها ، فطلبنا منها أن تحجز لنا غرفتين فى فندق صغير فى وسط لندن ، وانطلقنا إليه فوجدناه فندقاً صغيراً من فنادق لندن التى تعمل بنظام « السرير والإفطار » ولا تقدم أية خدمات أخرى للنزلاء ويديرها عادة موظف واحد أو موظفة واحدة ولكن « منى » لم تجد

سوى غرفة واحدة خالية فى هذا الفندق نزلت فيها مع عونى وأقامت سلوى مع منى فى فندق هندى صغير قريب وأمضينا الأيام الثلاثة الخالية فى زيارة معالم لندن وتناول الوجبات فى المطاعم والمقاهى العربية فى شارع «كوينز واى» الذى كان فى أيامها مركزاً لتجمع المصريين والعرب فى لندن ، قبل أن ينتقل هذا المركز الآن إلى شارع «إدجوار رود» فى قلب العاصمة البريطانية .

وجاء يوم تسلم الشهادات فذهبنا فى الموعد المحدد إلى إدارة المعهد .. ووجدنا رئيس مجلس الأمناء الذى يشرف على إدارة مؤسسة طومسون للأعمال غير التجارية فى انتظارنا ووجدنا أيضا رولاندز ومصوراً محترفاً ينتظراننا وسلمنا رئيس مجلس الأمناء الشهادات .. ورفض رولاندز أن يمنح «معاوية» الدارس الجماهيرى الذى كان يزورنا من حين إلى آخر فى كارديف شهادة التخرج وسلمه بدلاً منها ورقة تفيد أنه حضر جانبا من المحاضرات التى ألقيت خلال الدورة ، وعلمت فيما بعد أن براون وقد كان أكثر الأساتذة أقترابا من معاوية وأكثرهم مداعبة له بل وأنسا بصحبته خلال الفترات التى كان يأتى فيها إلى كارديف هو نفسه الذى هدد بالإستقالة لو جامل رولاندز معاوية وأعطاه شهادة تخرج كباقى زملائه الذين أمضوا شهور الدورة فى عمل جاد محاولين الاستفادة منها . وبقدر أسفى لمعاوية وللصدمة التى أحس بها حين أعطاه رولاندز هذا الخطاب وللمتاعب التى قد يتعرض لها بسبب ذلك خاصة وأن دراسته مدفوعة الأجر على عكس باقى الدارسين أعجبت بموقف براون الذى اثبت لنا فعلا

أنه رغم هذره ومناوشاته رجل جاد عادل يفرق بين العلاقة الشخصية والعمل . وكان هذا الدرس فى إلتزام الموضوعية عند تقييم جهود الآخرين هو آخر الدروس التى تعلمتها خلال هذه الشهور التى أمضيتها بعيداً عن أهلى وصحابى وعملى فى بريطانيا وما كان أكثر هذه الدروس وما كان أعمق تأثيرها فى نفسى !

الفهـــرس

مطبعة نهضة مصر

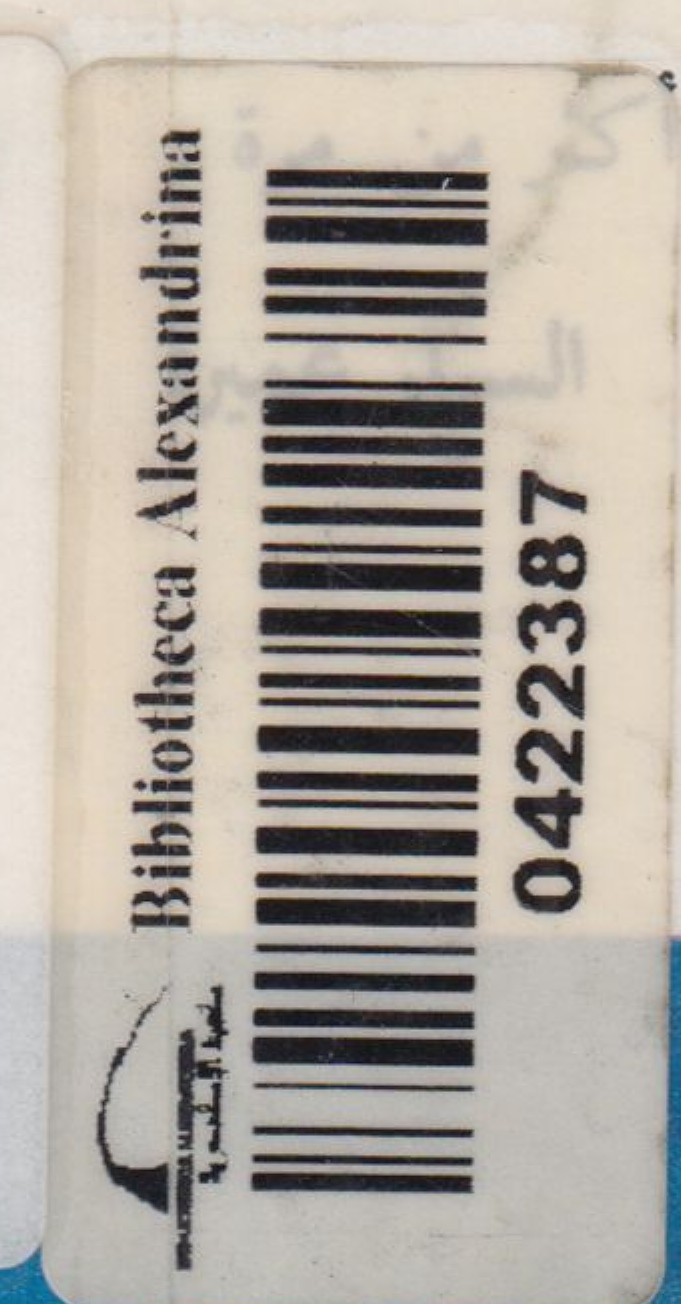
هذا الكتاب

أمتعنا الكاتب الصحفى الأستاذ عبد الوهاب مطاوع فى كتابه أصدقاء على الورق بالنبض الصادق الذى كان يتدفق من خلال عرضه الأدبى الرفيع لمشاكل قرائه .

وفى هذا الكتاب نطالع عرضه الممتع والذى ينبض بتجربته الذاتية فى « يوميات طالب بعثة » فاسلوبه الرقيق يجذبك فى الاستغراق فى القراءة دون ملل ولقد ضم الكتاب بين دفتيه فصولا تروى تجربة المؤلف فى دورة دراسية بمعهد طومسون للصحافة ، زامله فيها بعض الدراسين العرب ، من خلال رؤية الفنان والأديب ، ومعايشته للحياة فى بريطانيا مقارنة بتجارب حياته وطفولته .

إن هذا الكتاب تجربة فنية فريدة تنبض بالأسلوب الأدبى الراق وأدب الرحلات والسيرة الذاتية .

.. ويقينى أن القارىء سيعيد قراءة هذا الكتاب أ



دار
زهور الفكر